سلسلة في ظلال السيرة

الحديث الثالث

الفوائد الحسان في حديث هرقل وأبي سفيان



الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

الحديث الثالث

الفوائد الحسان في حديث هرقل وأبي سفيان

سلسلة في ظلال السيرة

الحديث الثالث

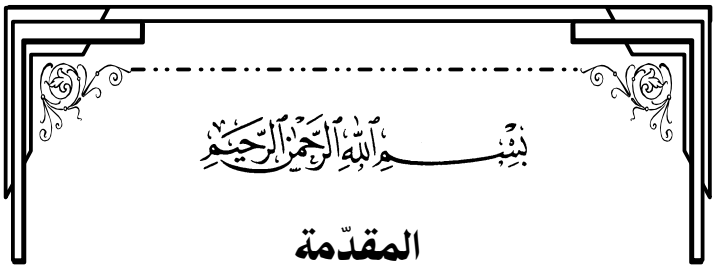
الفوائد الحسان في حديث هرقل وأبي سفيان

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م

تم طبع هذه الرسالة على نفقة
أبناء الحاج بهاء الجمل رحمه الله تعالى
صدقة عن روح أبيهم بهاء الدين الجمل
وأخيهم فؤاد بهاء الجمل رحمهما الله تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

اللَّهم إنّا نحمدك حمداً يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**. . .

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

وبعد أن يسّر الله لي شرح جملة من الأحاديث الشريفة التي تتناول مواضيع متنوّعة يحتاجها الناس في حياتهم، رأيت أن أنحو هذا النحو في سيرة رسول الله ﷺ، فأقوم بشرح السيرة النبوية المطهّرة من خلال شرح الأحاديث الشريفة المتعلقة بها بعون الله تعالى.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «في ظلال السّيرة».

واللهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي
في طرابلس ـ لبنان
بتاريخ ١٥/ ذي الحجة/ ١٤٣٧هـ
الموافق له ١٧/ أيلول/ ٢٠١٦م



متن الحديث

عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَيْهِ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِي، وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ. وَكَانَ قَيْصَرُ، لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ، مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى إِيلِيَاءَ، شُكْراً لِمَا أَبْلاَهُ اللَّهُ. فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرَ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأَهُ: الْتَمِسُوا لِي هَا هُنَا أَحَداً مِنْ قَوْمِهِ لأَسْأَلَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ كَانَ بِالشَّأْمِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدِمُوا تُجاراً فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَجَدَنَا رَسُولُ قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشَّأْمِ، فَانْطَلَقَ بِي وَبِأَصْحَابِي

حَتَّى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ، فَأُدْخِلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ مُلْكِهِ وَعَلَيْهِ التَّاجُ، وَإِذَا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ. فَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: سَلْهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَباً إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِي. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً. قَالَ: مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ ابْنُ عَمِّي، وَلَيْسَ فِي الرَّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي، فَقَالَ قَيْصَرُ: أَدْنُوهُ. وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي، ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لأَصْحَابِهِ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ عَنِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِي، فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ لَكَذَبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ. ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ. فَقَالَ: هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: فَيَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ الآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، نَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً أَنْتَقِصُهُ بِهِ لاَ أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قُلْتُ: كَانَتْ دُوَلاً وَسِجَالاً، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى. قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ. فَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ: قُلْ لَهُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، قُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ، قُلْتُ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ. وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ،

فَزَعَمْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تَخْلِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ يَغْدِرُونَ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُوَلاً، وَيُدَالُ عَلَيْكُمُ الْمَرَّةَ وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ الأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ. وَسَأَلْتُكَ بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ. قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقّاً، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُرِئَ فَإِذَا فِيهِ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ، عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ، فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا. فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ، قُلْتُ لَهُمْ: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، هَذَا مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ يَخَافُهُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَمَا زِلْتُ مُوقِناً بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

قَالَ الزُّهْرِي: فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّوم فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّوم، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِي؟ قَالَ: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ. فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الَّذِي أَحْبَبْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ[1].

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري برقم ٧، ورقم ٢٧٨٢، ومسلم برقم ٤٧٠٧.

شرح الحديث

بعد أن عقد النبي ﷺ صلح الحديبية بينه وبين كفار قريش في السنة السادسة للهجرة، واتفق الطرفان فيه على وقف القتال بينهما لمدة عشر سنوات، تفرّغ عندها النبي ﷺ لدعوة ملوك الأرض إلى الإسلام. فأرسل رُسُله إلى مَلك الفرس، ولقبه كسرى، وإلى ملك الروم، ولقبه قيصر، وإلى ملك الحبشة، ولقبه النّجاشي، وإلى غيرهم من الملوك يدعوهم إلى الإسلام. فروى أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَإِلَى قَيْصَرَ وَإِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ»[1].

فأما رسالته ﷺ إلى قيصر الروم، واسمه وقتها هرقل، فقد بعثها النبي ﷺ مع الصحابي الجليل دِحية

(١) رواه مسلم برقم ٤٧٠٩.

الكلبي ﷺ، فحملها دِحيةُ ﷺ إلى والي بُصرى المعيّن من قبل هرقل، فحملها والي بُصرى بنفسه إلى هرقل.

استلم هرقل رسالةَ النبي ﷺ وهو يومئذ بالقدس الشريف، واسم القدس عندهم إيلياء. وأما سبب وجود هرقل بالقدس مع أن مقرّ إقامته كان في حمص، فهو أنه كان قد عزم على أن يذهب ماشياً إلى بيت المقدس ليصلي فيه، شكراً لله تعالى، بعدما نصره نصراً مؤزّراً على الفرس، كسر فيه عُنجهيّتهم، ووطّد فيه دعائم إمبراطوريته.

قرأ هرقل رسالة النبي ﷺ التي دعاه فيها للإسلام، وبيّن له فيها أنه رسول من عند الله ﷻ. وكان هرقل رجلاً حكيماً عاقلاً، لذلك لم يتسرّع بالجواب، بل أراد أن يعرف أكثر عن محمد ﷺ، ليتثبّت من صدق دعواه النبوّة. فأمر هرقلُ قائدَ شرطته ليُحضِرَ له من يَجدُه في مملكته من العرب قوم محمد ﷺ، ليسألهم عن أحواله[1]. وقدّر الله تعالى أن يقع الاختيار على أبي

(١) في هذا الحديث فوائد عظيمة مرتبطة بالمواضيع التي في الشرح. ولم أحبّ إدراجها في الشرح، خشية الاستطراد المخلّ، لذلك جعلتها في نهاية الشرح، وأشرت إلى كل فائدة عند موضعها في الشرح. وهذا الموضع هو محلّ الفائدة الأولى، وهي: فضل التثبت في الأمور.

سفيان بن حرب، وكان وقتها قد قَدِم الشام مع جماعة من قومه للتجارة، فعَثر عليهم قائدُ شرطة هرقل في غَزّة، فاستاقهم معه إلى هرقل في بيت المقدس.

وقد ورد هذا التفصيل في روايةٍ عند ابن إسحاق جاء فيها: «قال أبو سفيان: كنا قوماً تُجاراً، وكانت الحرب قد حصَرَتنا حتى نَهَكَتْ أموالنا. فلما كانت الهُدنة ـ هدنة الحديبية ـ بيننا وبين رسول الله ﷺ، فخرجتُ تاجراً إلى الشام مع رهْط من قريش، فوالله ما علمتُ بمكة امرأةً ولا رجلاً إلا وقد حمّلني بضاعةً، وكان وجهُ متجرِنا من الشام غزّة من أرض فلسطين. فخرجنا حتى قدمناها، وذلك حين ظهر قيصر صاحب الروم على من كان في بلاده من الفرس فأخرجهم منها، ورُدّ عليه صليبه الأعظم وقد كان استلبوه إياه. فلما أن بلغه ذلك، وقد كان منزله بحمص من الشام، فخرج منها يمشي متشكّراً إلى بيت المقدس ليصليَ فيه، تُبسط له البُسُط ويُطرح عليها الرياحين، حتى انتهى إلى إيلياء فصلى بها»[1]. ولما أُحضر أبو سفيان ومن معه بين يدَيْ هرقل، دعا هرقلُ تُرجمانَه ليُترجم له، لأنه لا يحسن العربية. وقال لتُرجمانه: «**سَلْهم أيُّهم أقرب نسباً إلى هذا**

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ج ٣/ص ٤٩٥).

الرجل الذي يزعم أنه نبيّ. قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسباً. قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمّي، وليس في الرّكْب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري». فقول أبي سفيان عن النبي ﷺ أنه ابن عمّه، لم يقصد به أبو سفيان أن أباه وأبا النبي ﷺ هما أخوان، وإنما قصد به أنه يجتمع مع النبي ﷺ في الأب الرابع، وهو عبد مناف. فرسولنا ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأبو سفيان هو: صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولم يكن في الوفد أحد أقرب نسباً إلى رسول الله ﷺ منه، لذلك قال أبو سفيان: وليس في الرّكْب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري.

ولكن لماذا عمَد هرقلُ إلى التحرّي عن أقرب الوفد نسباً برسول الله ﷺ ليسأله عنه؟ والجواب: أنه خصّ الأقرب نسباً، لأنه أحرى بالاطلاع على أموره ظاهراً وباطناً أكثر من غيره، ولأن الأبعد لا يُؤمَن أن يقدَح في نسبه بخلاف الأقرب، وظهر ذلك في سؤاله بعد ذلك، كيف نسبُه فيكم؟[1].

عندها أمَر قيصرُ حرَّاسه أن يقدّموا أبا سفيان

---

(١) فتح الباري لابن حجر (ج ١/ص ٣٤).

للوقوف أمامه، وأن يؤخّروا أصحابه عنه قليلاً، لأنه يريد أن يطرح عليه بعض الأسئلة، ويخشى أن يَكْذِبه في جوابها، فأخّر أصحابَه خلفه، وأمرهم إذا كذب عليه أبو سفيان أن يُومِئوا له بإشارة ما تدل على كذب صاحبهم من دون أن يُحرَجوا منه، لأنه متقدّم عليهم في الموقف فلا يراهم. ولم يعلم هرقلُ بأن أصحاب أبي سفيان لم يكونوا ليفضحوا صاحبهم لو كذب على محمد ﷺ، لأن عداوة الإسلام تجمعهم، وقد صرّح بهذا أبو سفيان، كما ورد في رواية ابن إسحاق، حيث قال: «فلقد عرفتُ أني لو كذَبتُ ما ردّوا عليّ»[1]. إلا أن أبا سفيان لم يكذب في حديثه مع هرقل، ولم يكن المانع عنده من الكذب هو حبّه لمحمد ﷺ أو اتّباعه للإسلام، بل كان يبغض النبي ﷺ بغضاً شديداً، كما أنه لم يكن وقتها قد أسلم، فإن إسلامه تأخر إلى السنة الثامنة للهجرة عندما فتحت مكة. ولكن الذي منعه من الكذب هو حياؤه، فأبو سفيان زعيم في قومه، بل صار زعيم قريش الأوحد بعد مقتل أبي جهل وغيره من زعماء قريش في غزوة بدر، ومثله يترفّع عن الكذب. قال أبو سفيان، كما في رواية ابن إسحاق التي أشرنا إليها آنفاً: فلقد عرفتُ أني لو كذبتُ ما ردّوا عليّ، ولكني كنتُ امرءاً سيّداً أتكرّم

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ج ٣/ص ٤٩٦).

وأستحي من الكذب، وعرفتُ أن أدنى ما يكون في ذلك أن يرووه عني ثم يتحدّثوا به عني بمكة، فلم أكذبه»[1]، [2].

وبعد أن اطمأنّ هرقل إلى اطّلاع أبي سفيان على أحوال محمد ﷺ، من خلال القرابة التي تجمعهما، كما اطمأنّ إلى صدقه في الحديث الذي سيدلي به، خاصّة بعدما أوصى الوفد المرافق له بالردّ عليه إن كذب، شرَع حينها هرقلُ بطرح أسئلته على أبي سفيان علّها تكشف له حقيقة محمد ﷺ. ولنبدأ بالسؤال الأول:

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ج ٣/ص ٤٩٦).

(٢) هنا موضع الفائدة الثانية، وهي: مكارم الأخلاق عند العرب.

الأسئلة التي طرحها هرقل

❍ السؤال الأول:

كان أول سؤال طرحه عليه أن «**قال: كيف نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟**» أي: ما مستوى نسبه فيكم، هل هو من أشرافكم أم من أراذلكم؟ «**قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسبٍ**»، أي: نسبه فينا عظيم، فالتنوين في كلمة نسبٍ أفاد التعظيم.

ولقد رأيتُ من المناسب قبل أن أستطرد في شرح باقي الأسئلة، أن أعرّج مباشرة على ذكر الحكمة التي رمى إليها هرقلُ من وراء طرحه لتلك الأسئلة. فهرقل بعد أن انتهى من أسئلته كما انتهى أبو سفيان من أجوبته، جعل يقارن بين أجوبة أبي سفيان عن محمد ﷺ، وبين ما عنده من العلم بصفات الأنبياء، ليستكشف من خلال المقارنة مدى صدق محمد ﷺ في دعواه النّبوّة. ولا يخفى على القارئ أن هرقل كان عالماً

من علماء النصارى، وقد ظهر بعضُ علمه في هذا الحديث. أمَر هرقل تُرجمانه أن يبيّن لأبي سفيان الحكمة من سؤاله الأول، والنتيجة التي خلص إليها بعد جواب أبي سفيان، فقال: «**قُلْ لَهُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا**». أي لمّا سألتك يا أبا سفيان عن مستوى نسب محمد ﷺ فيكم، فذكرتَ بأنه صاحبُ نسب رفيع في قريش، فقد طابق جوابُك هذا ما علمتُه من صفات الرسل وهو: أنّ لهم أنساباً رفيعة في أقوامهم، بل لهم الكعب المعلّى في رِفعة النسب.

وقد يسأل سائل: ما هي الحكمة في كون الرسل تُبعث في ذروة قومها نسباً؟ والجواب والله أعلم: أن عموم الخلق يهتمّون دائماً بالأنساب، أي: إذا أرادوا التحرّي عن شخص، فأول ما يسألون عنه هو السؤال عن آبائه وأجداده وأسرته، وهل هم معروفون بالمروءة والشهامة والكرم أم ليسوا كذلك. والناس تميل بطبعها إلى أصحاب المآثر والمكارم والمروءات، وتنفر من ذوي الدناءة والنذالة والخسّة، لذلك نزّه الله تعالى رسله الكرام عن النّسب الوضيع، حتى لا يتخذ الناس ذلك ذريعة للانفضاض عنهم، والإعراض عن سماع رسالتهم، وجعلهم في المحل الأعلى في النسب. ورِفعة النسب لا

تستلزم قوّة الإيمان، فقد تجد في آباء الأنبياء وأجدادهم، من أعرض عن الإيمان بالكليّة ولم يستجب لدعوة الرسل، إلا أنك لا تجد فيهم خسيساً ولا دنيئاً ولا زانياً، بل كانوا أصحاب مروءات ونجدة وشرف. روى ابن عدي عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدُن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء**»[1].

❍ السؤال الثاني:

«**قال هرقل: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟**» أي: هل ادّعى النبوّة أحد من العرب قبل أن يدّعيها محمد ﷺ؟ «**قال أبو سفيان: لاَ**». فقال هرقل بعدها مبيّناً الحكمة من وراء طرحه لهذا السؤال: «**وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، قُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ**». أي: لو كان أحد منكم ادّعى النبوّة قبل محمد ﷺ، لكان وارداً في الاحتمال أنّ محمداً ﷺ قد استَهْوتْه هذه الفكرة فقلّد فيها من سبقه، ولكن لما

---

(١) أخرجه ابن عدي، وحسّنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم ٥٥٣٦.

نفيتَ هذا الأمر، انتفى عندي هذا الاحتمال. ويظهر لنا أن كلام هرقل هذا إنما قاله عن استنتاج هداه إليه فكره ونظره، وليس عن علم مأخوذ من التوراة والإنجيل بخلاف جوابه الأول.

❍ السؤال الثالث:

«**قَالَ هرقل: هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟**» أي هل كان محمد ﷺ قبل أن يدّعي النبوّة يكذب في معاملاته أو في حديثه مع الناس؟ «**قال أبو سفيان: لاَ**». ثم قال هرقل مبيّناً الحكمة من وراء طرحه لهذا السؤال: «**وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ**».

أي: يبعد في المنطق والعادة: أن رجلاً لم يكذب على الناس قط لا في حديثه ولا في معاملاته، ثم ينبري فجأة للكذب على الله تعالى، فيدّعي أن الله تعالى قد أرسله للناس رسولاً، والله سبحانه لم يفعل، لأن الكذب على الله أشدّ من الكذب على الناس، ومن تورّع في ترك الكذب على الناس فمن باب أوْلى أن يتورّع في ترك الكذب على الله تعالى.

وهذا أيضاً استنتاج عقلي استنتجه هرقل، ولم يكن

ليخفى على علماء أهل الكتاب أن الأنبياء مبرّأون من الكذب بعد النبوّة وقبلها. وقد أشار القرآن الكريم بإشارة لطيفة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾[1]، فهذا خطاب لأهل مكة، والمراد بصاحبهم: رسول الله ﷺ. والمعنى: وما محمد ﷺ يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم خبيرون بحاله، فقد صحبوه أربعين سنة قبل أن يُبعث نبياً، وعرفوا صدقه وأمانته ورجاحة عقله، حتى كانوا يلقّبونه بالصادق الأمين، فكيف يتجرأون بعد ذلك على اتّهامه بالجنون أو الخيانة، أو أنه افترى القرآن من عند نفسه[2].

كما ذكر القرآن الكريم حجة أخرى تنفي مزاعم قريش وتخرّصاتها، فقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨﴾[3]. أي: أيقول هؤلاء الكافرون لك ـ أيها الرسول الكريم ـ بأنك افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك؟ فقل لهم:

---

(١) التكوير: ١٩ ـ ٢٢.

(٢) انظر الوسيط لسيّد طنطاوي (ج ١/ص ٤٤٥٣).

(٣) الأحقاف: ٨.

إن كنتُ على سبيل الفرض والتقدير قد افتريتُه من عند نفسي، إذاً لعاجلني ربي بالعقوبة، ولما استطعتم أنتم أو أحد غيركم أن تمنعوا عني شيئاً من عذابه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وقد مضت سنّة الله تعالى: أن من ادّعى النبوّة كذباً وافتراءً عاجله الله تعالى بالهلاك في الدنيا قبل الآخرة، ولذلك لمّا ادّعى النبوّة مسيلمة الكذاب والأسود العنسي لم يطل أمرهما حتى هلكا سريعاً. فكوني ادّعيت النّبوة ومع هذا لم يعاجلني الله تعالى بالهلاك، بل على العكس من ذلك أيّدني بالمعجزات والكرامات وأظفرني على أعدائي وفتح لي ولأمتي مشارق الأرض ومغاربها، فكل هذا دليل على رضاه عني وشهادة لي من الله بأني رسوله.

❍ السؤال الرابع:

«قَالَ هرقل: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قال أبو سفيان: لاَ». ثم قال هرقل مبيّناً الحكمة من سؤاله:

---

(١) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

«**وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ**». أي: لو كان أحد من آبائه ملكاً، لظننتُ أنه يدّعي ما يدّعيه من النبوّة بُغية التوصّل بها إلى ملك أبيه. وهذا أيضاً استنتاج وتحليل من هرقل، وإلا فلا يمتنع في سنّة الأنبياء أن يكون والد النبي ملكاً، فقد كان سليمان بن داود عليه السلام نبيّاً، وكان أبوه داود عليه السلام ملكاً ونبيّاً. وكان الإنصاف يقتضي من أبي سفيان في هذا المقام أن يبيّن لهرقل: أن قوم محمد ﷺ قد عرضوا عليه الملك مقابل أن يتخلى عن دعوته، فأبى عليهم ذلك أشدّ الإباء، فلو أنه ادّعى ما ادّعاه من النبوّة بغية الوصول إلى المُلك، لما تأخر عنه حين عُرض عليه. ولكن كما ذكرنا سابقاً فإن أبا سفيان لم يكن وقتها مؤمناً، وبالتالي لم يكن حريصاً على إيمان هرقل بمحمد ﷺ.

❍ السؤال الخامس:

«**قَالَ هرقل: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟**» والمراد بالأشراف هنا أهل القوّة والمال، لأنه قابل بينهم وبين الضعفاء، وهم الفقراء والمساكين. «**قال أبو سفيان: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ**». وجواب أبي سفيان هذا محمول على الأعم الأغلب، وإلا فقد كان فيمن أسلم حينئذ أهل مال وغنى وقوّة، كأبي بكر وعثمان وعبدالرحمٰن بن

عوف وغيرهم. ثم «**قال هرقل: وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ**». أي: أن أتباع الرسل في الغالب هم الفقراء والمساكين، لا أهل الجاه والغنى الذين يزهدون غالباً في دعوة الرسل، لأنها تحجزهم عن اتباع شهواتهم وملذاتهم.

وجواب هرقل هذا صحيح، وهو مأخوذ من علم أهل الكتاب، ومن استقراء أحوال الرسل وأممهم. وقد بيّن القرآن الكريم أن غالب الرؤساء والأغنياء لا يتّبعون الحق. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾[1]. قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمعنى: ما أرسلنا في قرية من القرى من نذيرٍ يُنذر أهلها بسوء العاقبة، إذا ما استمرّوا على كفرهم وضلالهم، ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، أي إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها المتّسعون في النّعم فيها، لمن جاؤوا لإنذارهم وهدايتهم إلى الحق: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ من الدعوة إلى عبادة الله تعالى ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ثم قال: فالآية الكريمة تحكي موقف المترَفين في كل أمة من الرسل الذين جاؤوا لهدايتهم، وأن هؤلاء

(١) سبأ: ٣٤.

المترفين في كل زمان ومكان، كانوا أعداء للمصلحين، لأن التَرَف من شأنه أن يُفسد الفطرة، ويبعث على الغرور والتطاول، ويَحُول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا، ويهدي إلى الانغماس في الرذائل والشهوات الدنيا»[1].

وروى البخاري ومسلم عَنْ أُسَامَةَ بن زيد ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ[2]، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ**»[3].

❍ السؤال السادس:

«**قَالَ هرقل: فَيَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قال أبو سفيان: بَلْ يَزِيدُونَ**». ثم قال هرقل بعدها: «**وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ**». أي: سألتك عن أتباع محمد ﷺ: هل يزيد

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ٣٤٨١).

(٢) أصحاب الجدّ: هم أهل المال، يُحبسون ويؤخّرون عن دخول الجنة حتى يُحاسبوا على أموالهم، فإن نجحوا أُمر بهم إلى الجنة.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٥١٩٦، ومسلم برقم ٧١١٣.

عددهم أم ينقص؟ فذكرت أن أتباعه في ازدياد، وكذلك الإيمان حتى يتم، أي أن دعوة الإيمان هي دوماً إلى ازدياد وتوسّع، بخلاف الدعوة إلى الأمور الدنيوية، فلا يزال أهل الإيمان في ازدياد وتكاثر حتى يتمّ بهم إظهار الدين وإعلاء كلمته.

وما ذكره هرقل في ازدياد المؤمنين واتساع رقعة الإيمان صحيح، وينطبق تماماً على أصحاب نبينا محمد ﷺ، إذ لم يزالوا في ازدياد وتنامي حتى أظهر الله تعالى بهم دينه. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. قال ابن كثير رحمه الله: «ينبّه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطّفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي،

(١) الأنفال: ٢٦.

كلهم أعداء لهم لِقِلَّتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله. قال قتادة بن دِعَامة السَّدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: كان هذا الحيّ من العرب أذلّ الناس ذُلاً وأشقاه عَيْشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحسدون عليه. من عاش منهم عاش شقيّاً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نعلم قَبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُنْعِم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى»[1][2].

---

(١) تفسير ابن كثير (ج ٤/ص ٤٠).

(٢) موضع الفائدة الثالثة، وهي: وعد الله للأمة بالتمكين.

❍ السؤال السابع:

«**قَالَ هرقل: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قال أبو سفيان: لاَ**». ثم قال هرقل بعدها: «**وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، فَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تَخْلِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ**». أَي: وسألتك عن أصحابه، هل رأيت أحداً منهم يدخل في الإسلام ثم يتركه بعد فترة متذمّراً من الدين وساخطاً عليه، فذكرت أن هذا لم يحدث، فدلّ هذا في نظري أن دعوة محمد ﷺ هي دعوة إيمانية صادقة، لأن من عرف الإيمان وذاق حلاوته تمسّك به بكل قوّته ولم يتركه. فبشاشة الإيمان هي حلاوته، وقد وردت كذلك في رواية ابن إسحاق: «وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه»[1].

وكلام هرقل هذا أيضاً صحيح، وقد بيّن النبي ﷺ أن للإيمان حلاوة يتذوّقها ويشعر بها أهل الإيمان الصحيح.

فروى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ**

(١) السيرة النبوية لابن كثير(ج ٣/ص ٤٩٧).

يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1]. وروى مسلم عن الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبّاً وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً**»[2].

ومن هنا نفهم السرّ العميق وراء تعلق المؤمنين بالإيمان، وتحمّلهم الأذى الشديد والاضطهاد بكل أنواعه وأشكاله دون أن يصدّهم ذلك عن الإيمان، إلى جانب ما نراه من سكينة وطمأنينة ورضى عند أهل الإيمان رغم متاعبهم ومصائبهم.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[3]. قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: «فهذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عند أهله عين اليقين بل هو حق اليقين، ولا بدّ لكل من عمل صالحاً أن يحييَه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله. ولكن يغلط الجُفاة الأجلاف في مسمّى

---

(١) أخرجه البخاري برقم ١٦، ومسلم برقم ١٧٤.
(٢) أخرجه مسلم برقم ١٦٠.
(٣) النحل: ٩٧.

الحياة، حيث يظنّونها التّنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذّة الرّياسة والمال وقهر الأعداء والتفنّن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذّة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السّباع والدوابّ والأنعام، فذلك ممن يُنادى عليه من مكان بعيد. ولكن أين هذه اللذّة من اللذّة بأمرٍ إذا خالط بشاشته القلوب سَلَى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرّض نفسه لأنواع المكاره والمشاقّ وهو متحلّ بهذا، منشرح الصدر به. حتى إنّ أحدَهم ليتلقّى الرّمح بصدره ويقول: فُزت وربّ الكعبة. ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقي قُوْتَه من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدّم إلى الموت فرحاً مسروراً.

ثم قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن تأمّل قول النبي ﷺ لمّا نهاهم عن الوِصال، فقالوا: إنك تواصل! فقال: «**إني لست كهيئتكم إني أظلّ عند ربي يُطعمني ويسقيني**»[1]،

(١) الوصال في الصوم هو: أن يصوم النهار، فإذا جاء الليل لم يفطر بل يبقى صائماً إلى اليوم الثاني، وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: =

علم أن هذا طعام الأرواح وشرابُها وما يَفيض عليها من أنواع البهجة واللذّة والسرور والنّعيم، الذي رسول الله ﷺ في الذّروة العليا منه، وغيرُه إذا تعلّق بغباره رأى مُلك الدنيا ونعيمَها بالنسبة إليه هباءً منثوراً بل باطلاً وغروراً. وغلط من قال: إنه كان يأكل ويشرب طعاماً وشراباً يغتذي به بدنُه، لوجوه؛ أحدها: أنه قال: «**أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**» ولو كان أكلاً وشرباً لم يكن وصالاً ولا صوماً. الثاني: أن النبي ﷺ أخبرهم أنهم ليسوا كهيئته في الوصال، فإنهم إذا واصلوا تضرّروا بذلك، وأما هو ﷺ فإنه إذا واصل لا يتضرّر بالوصال، فلو كان يأكل ويشرب لكان الجواب: وأنا أيضاً لا أواصل بل آكل وأشرب كما تأكلون وتشربون، فلما قرّرهم على قولهم إنك تواصل، ولم يُنكره عليهم، دلّ على أنه كان مواصلاً وأنه لم يكن يأكل أكلاً وشرباً يُفطر الصائم. الثالث: أنه لو كان أكلاً وشرباً يفطر الصائم لم يصح الجواب بالفارق بينهم وبينه، فإنه حينئذ يكون ﷺ هو وهم مشتركون في عدم الوصال، فكيف يصح الجواب بقوله: «**لست كهيئتكم**». وهذا أمر يعلمه غالبُ النّاس:

= نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل! قال: «**إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقين**» أخرجه البخاري برقم ١٨٦٣، ومسلم برقم ١١٠٥.

أن القلب متى حصل له ما يُفرِحه ويَسُرّه من نيْل مطلوبه ووصال حبيبه، أو ما يُغمّه ويَسؤوه ويُحزنه، شُغل عن الطعام والشراب. حتى إن كثيراً من العُشاق تمرّ به الأيام لا يأكل شيئاً ولا تطلب نفسه أكلاً. وقد أفصح القائل في هذا المعنى:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتُلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا اشتكت من كَلال السير أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

والمقصود أن الهُدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنّعيم العاجل، وهو أمر يشهد به الحسّ والوَجْد. وأما سعادة الآخرة فغيْب يُعلم بالإيمان»[1].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: إنّ في الدنيا جنّة من لم يدخلها لا يدخل جنّة الآخرة. وقال لي مرّة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري إن رُحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما

(١) مفتاح دار السعادة (ج ١/ص ٣٦).

جزيتُهم على ما تسبّبوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله. وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قلبُه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها، نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1]. وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنّعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدراً وأقواهم قلباً وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنّا إذا اشتدّ بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنّته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر:

---

(١) الحديد: ١٣.

مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره، أو نحو هذا. وقال آخر: إنه لتمرّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وقال آخر: إنه لتمرّ بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيّب. فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم. وهو قرّة عين المحبين وحياة العارفين، وإنما تقرّ عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله ﷻ، فمن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطّعت نفسُه على الدنيا حسرات»[1].

❍ السؤال الثامن:

«قَالَ هرقل: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قال أبو سفيان: لاَ، وَنَحْنُ الآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، نَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً أَنْتَقِصُهُ بِهِ لاَ أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا». ثم قال هرقل بعدها:

---

(١) الوابل الصيّب (ج ١/ص ٦٧).

«**وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِك الرُّسُلُ لاَ يَغْدِرُونَ**». أي: سأل هرقل أبا سفيان عن محمد ﷺ: هل يغدر. والغدر هو: نقض العهد، أي: أن تعاهد أحداً على أمر ثم تنكث عهدك معه وتنقضه. فقال أبو سفيان: لا، أي لم نأثِر عنه نكثاً لعهد عاهده حتى الساعة، إلا أننا قد عقدنا معه حديثاً عهداً لمدّة معلومة، ولا ندري هل سيلتزم بعهده هذا أم سيغدر. ويشير أبو سفيان بهذا إلى صلح الحديبية حيث اتفق النبي ﷺ مع قريش وقتها على وضع الحرب بينهما لمدة عشر سنوات. ثم «**قال أبو سفيان: وَلَمْ يُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً أَنْتَقِصُهُ بِهِ لاَ أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا**»، أي: كل ما سألني عنه هرقل أجبته عنه بصدق، ولكن لم يكن في أجوبتي كلها ما يَشين محمداً ﷺ أو يذمّه، كما أني لم أتمكن من تمرير كلمة تطعن في محمد ﷺ، إلا أنه لما سألني عن وفائه بالعهد، تمكّنت من تمرير كلمة تثير حوله بعض الريبة، فقلت له: بأننا متخوّفون من وقوع الغدر منه في المستقبل وإن لم نعهد منه غدراً فيما مضى. وعندما أدخلتُ هذه الكلمة لم أخش من أصحابي أن يرووها عني، لأني لم أكذب فيها. وقول أبي سفيان هذا «**ولم يمكني كلمة...**» لم يتفوّه به أمام هرقل بالتأكيد، وإنما ذكره للعباس رضي الله عنه حين روى له هذا الحديث. ونلاحظ أن الكلمة التي مرّرها أبو سفيان لم

يلتفت إليها هرقل ولم يُعِرها اهتمامه، بل لم تترك عنده أي أثر، بدليل أنه أثناء بيانه للحكمة من وراء طرحه لهذا السؤال، لم يتعرض بتاتاً لما أثاره أبو سفيان، فقد قال: «**وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ**»، ففهم من جواب أبي سفيان نفي الغدر عن محمد ﷺ مطلقاً، ولم تثر عنده كلمة أبي سفيان تلك أي ريبة أو شك. «**قال هرقل: وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ يَغْدِرُونَ**»، أي: وهنا أيضاً وافقت صفة محمد ﷺ صفة المرسلين في كونهم منزّهين عن الغدر. وهذا أيضاً من العلم الذي أخذه هرقل عن الكتاب الأول[1].

❍ السؤال التاسع:

«**قَالَ هرقل: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟ قال أبو سفيان: نَعَمْ. قَالَ هرقل: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قال أبو سفيان: كَانَتْ دُوَلاً وَسِجَالاً، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى**». **فَقَالَ له هرقل بعدها: «وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُوَلاً، وَيُدَالُ عَلَيْكُمُ الْمَرَّةَ وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ الأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ**».

---

(١) هنا موضع الفائدة الرابعة، وهي: تحريم الغدر.

أي: سأل هرقل أبا سفيان عن كيفية القتال بين محمد ﷺ وبين قريش، فأخبره أبو سفيان: أن الحرب بينهما سجال. وأصل السّجال من مناوبة المُستقين على البئر بالدّلاء، فينزع هذا سجلاً وهذا سجلاً ـ والسَجْل هو الدلو الذي فيه ماء ـ، يتناوبان بينهما السقي، فسُمّيت مناوبتهم تلك مساجلة وسجالاً. وقول العرب: الحرب بيننا وبينهم سجال، أي: الحرب بيننا وبينهم نُوَب، نوبة لنا ونوبة لهم. وقوله: «**يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ وَنُدَالُ عَلَيْهِ الأُخْرَى**»، يريد: أن الدّوْلة تكون لهم علينا مرة، ولنا عليه مرة أخرى، والدولة هي: الظّفر والظّهور. وقد أشار أبو سفيان بذلك إلى ما وقع بينهم في غزوة بدر وغزوة أحد، حيث كان الظفر في الأولى للمسلمين وفي الثانية للمشركين. وقد صرّح أبو سفيان بذلك يوم أحد حين قال للمسلمين: يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

«**قال هرقل: وكذلك الرسل تبتلى، وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ**». أي: أن الرسل تُختبر بالغلبة عليهم ليُعلم صبرُهم، ثم تكون لهم العاقبة، أي: تكون لهم الغلبة في آخر المطاف.

وما ذكره هرقل في أن الرسل تُبتلى صحيح، وقد أخذه عن علم الأوّلين.

وقد بيّن النبي ﷺ أن الابتلاء سنة ماضية في المؤمنين عموماً، وفي الرسل على وجه الخصوص.

فروى الترمذي عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْباً اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[1]. فالابتلاء سنّة ماضية في الرسل، وقد ابتلوا ابتلاءً شديداً. فمنهم من أُخرج من بلده كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من قُتل كيحيى وزكريا عليهما السلام، ومنهم من ابتلي بالمرض الشديد كأيوب عليه السلام، ومنهم من ابتلي بفقد الولد مدة طويلة كيعقوب عليه السلام، ومنهم من ابتلي بالسجن كيوسف عليه السلام، وكان أشدّهم ابتلاء نبينا محمد ﷺ. روى الترمذي عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ**

(١) أخرجه الترمذي برقم ٢٥٧٨، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، كما صحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم ٢٣٩٨.

بِلَالٍ»[1].

ولكن الابتلاء ليس نهاية المطاف، بل هو مرحلة يُظهر الله تعالى بها للناس مقام رسله الكرام في الصبر والتحمّل، كما يُظهر فيها تفاوتهم في هذا المقام، ليعقب الابتلاء النصر والتمكين الذي هو نهاية المطاف. وظاهرٌ أن هرقل كان واثقاً من هذه النهاية، لذلك لما ذكر له أبو سفيان أن الحرب بينه وبين النبي ﷺ سجال، لم يعبأ هرقل بها، بل كان واثقاً من أن الجراحات في الحرب دليل على كون محمد ﷺ رسولاً، لأن الرسل لا بدّ وأن تُبتلى، كما كان واثقاً أيضاً من أن الغلبة في نهاية المطاف ستكون لمحمد ﷺ، لأن الدلائل كلها تشير إلى أنه رسول من عند الله حقاً، والعاقبة ستكون في الأخير للمرسلين. لذلك قال بعد ذلك: «**وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقّاً، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَي هَاتَيْنِ**». وصدَق هرقل، فقد كان حقاً ما قاله أبو سفيان في شأن محمد ﷺ، وقد كان صواباً ما توقّعه هرقل في شأن محمد ﷺ، فما هي إلا سنوات معدودات بعد هذا المجلس، حتى مكّن الله تعالى لرسوله ﷺ في الجزيرة

(١) أخرجه الترمذي برقم ٢٦٦٠ وقال: هذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم ٢٤٧٢.

العربية ففتحها عليه، كما مكّن لأصحابه من بعده في الشام ففتحها عليهم، وحازوا بيت المقدس، وهو الموضع الذي كان يقف فيه هرقل أثناء حديثه مع أبي سفيان[1].

❍ السؤال العاشر:

«قَالَ هرقل لأبي سفيان: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ أبو سفيان: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ. ثم قال هرقل بعدها: «وَسَأَلْتُكَ بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ».

سأل هرقل أبا سفيان: إلى ماذا يدعوكم محمد ﷺ، وبماذا يأمركم. فأجابه أبو سفيان بأنه يدعونا إلى توحيد الله ﷻ، وإفراده بالعبادة، لأن قريشاً كانوا مشركين، فهم وإن كانوا يُسلّمون بأن الله تعالى هو وحده الخالق الرازق، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعتقدون

---

(١) موضع الفائدة الخامسة، وهي: بين الابتلاء والتمكين.

في أوثانهم التي نصبوها حول الكعبة، والتي كانت ترمز إلى بعض الصالحين، أن بيدها شيئاً من النفع والضرّ، بما لها من وجاهة عند الله، فكانوا يتوجّهون إليها بالدعاء، ويتقرّبون إليها بالقرابين والنُذُر، ويحكّمونها في تدبير شؤون حياتهم، فجاءت دعوة الإسلام تنهاهم عن عبادة غير الله والتحاكم إليه، وتأمرهم أن يتوجهوا إلى الله وحده في كل عباداتهم، لأنه بيده وحده الملك، وبيده وحده الضرّ والنفع، وبيده وحده إجابة المضطر، وكشف السوء، وتدبير الأمور. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]. قال شيخي أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: قل يا رسولنا، بعد هذا العرض والبيان الشافي الذي تقدم في هذا السياق، للمشركين من قومك: ما دمتم مصرّين على الشرك بحجة أن شركاءكم ينفعُون ويضرون، وأنهم يشفعون لكم يوم تبعثون، ادعوهم، غير أن الحقيقة التي يجب أن تسمعوها وتعلموها ـ وأنتم بعد ذلك وما ترَوْن وتهوَوْن ـ هي أن الذين تدعونهم من دون الله وجعلتموهم لله شركاء، لا يملكون مثقال ذرة أي وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، لا

(١) سبأ: ٢٢.

يملكونها استقلالاً ولا يملكونها شركة مع الله المالك الحق، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض من شرك بمعنى شركة ولو بأدْنى نسبة. وشيء آخر وهو: أن شركاءكم الذين تدعونهم ليس لله تعالى منهم من ظهير، أي: معين حتى لا يقال بحكم حاجة الرب إليه ندعوه فيشفع لنا عنده، وشيء آخر هو: أن الشفاعة عند الله لا تتم لأحد ولا تحصل له إلا إذا رضي الله تعالى بالشفاعة لمن أريد الشفاعة له، وبعد أن يأذن أيضاً لمن أراد أن يشفع. فلم يبق إذاً أي طمع في شفاعة آلهتكم لكم لا في الدنيا ولا في الآخرة، إذاً فكيف تصح عبادتهم وهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا يشفعون لأحد في الدنيا ولا في الآخرة»[1]. والآيات في هذا الباب كثيرة جداً.

ثم ذكر أبو سفيان بأن محمداً ﷺ يدعوهم أيضاً إلى مكارم الأخلاق، من صلاة وصدْق وعَفَاف ووَفَاء بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءٍ للأَمَانَةِ، فعرف هرقل بأن هذه هي دعوة الأنبياء، وتأكد حينئذ من صدق نبينا محمد ﷺ، فقال:

(١) أيسر التفاسير للجزائري (ج ٣/ص ٣٢٠).

«**وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبيِّ**». أي: ما ذكرتَه يا أبا سفيان عن محمد ﷺ يتطابق تماماً مع صفة نبي آخر الزمان الذي بشّرنا به موسى وعيسى وغيرهم من رسل الله الكرام.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

وبهذا السؤال انتهت الأسئلة التي طرحها هرقل.

(١) الأعراف: ١٥٧.

المنهج الذي اتبعه هرقل في أسئلته

ومن خلال استعراضنا لهذه الأسئلة، تبيّن لنا أن هرقل كان ملكاً فطناً، وأنه استوعب في أسئلته تلك كل الجوانب التي تكشف له حقيقة محمد ﷺ. ويمكننا جَمْل الجوانب التي تعرض لها بثلاثة جوانب:

الجانب الأول: البحث في شخصية محمد ﷺ:

فسأل عن نسبه وعن آبائه، كما سأل عن أحواله وأخلاقه، وركّز السؤال عن صدق محمد ﷺ. لأن مدّعي النبوّة إما أن يكون صادقاً، فيُعتبر أطهر الناس نفساً وأزكاهم خلُقاً وأصدقهم لهجة، وإما أن يكون كاذباً، فيُعتبر أسوأ الناس نفساً وأرذلهم خلُقاً وأكذبهم لهجة، والتمييز بينهما لا يخفى على لبيب عاقل.

لذلك لما نزل جبريل بالوحي على النبي ﷺ في أول مرّة، ورجع النبي ﷺ إلى زوجته خديجة رضي الله عنها، وأخبرها بما رأى وسمع، وقال لها: «**لقد خشيتُ على**

نفسي»، أي: خشيت أن يكون الذي أتاني وارداً من الجن أو نحوه وألا يكون مَلَكاً، فعندها طمأنته خديجة رضي الله عنها وأكّدت له بأنه وارد من الحق. واستدلّت على ذلك بجميل سجاياه، فقالت له: «**كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتَصِل الرّحم، وتَحمِل الكَلَّ**[1]**، وتَكسِبُ المعدومَ**[2]**، وتَقري الضّيف**[3]**، وتُعين على نوائب الحق**»[4][5]، أي: فمثلك لا يتنزّل عليه إلا الملائكة. قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا لعلمها بما أجرى الله به جميل العوائد في خُلُقه، أنّ من كان متصفاً بصفات الخير لا يُخزى في الدنيا ولا في الآخرة، ثم ذكرت له من صفاته الجليلة ما كان من سجاياه الحسنة»[6].

---

(١) تحمل الكلّ: أي عن غيرك، تعطي صاحب العَيْلة ما يُريحه من ثقل مؤنة عياله.

(٢) تكسب المعدوم: أي تسبق إلى فعل الخير، فتبادر إلى إعطاء الفقير فتكسب حسنته قبل غيرك، ويسمّى الفقير معدوماً لأن حياته ناقصة، فوجوده وعدمه سواء.

(٣) تقري الضيف: أي تكرمه في تقديم قِراه، وإحسان مأواه.

(٤) تعين على نوائب الحق، ويروى «الخير»: أي إذا وقعت نائبة لأحد في خير أعنت فيها، وقمت مع صاحبها حتى يجد سداداً من عيش أو قواماً من عيش.

(٥) أخرجه البخاري برقم ٣.

(٦) السيرة النبوية لابن كثير (ج ١/ص ٣٩٤).

وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ[1]. وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ. وَكَانَ أَوَّلَ شَيءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[2]. إذاً استطاع عبد الله بن سلام ﷺ، وكان من أكبر علماء اليهود في المدينة، أن يميّز صدق النبي ﷺ بمجرّد التفرّس في وجهه، وسارع إلى الإيمان به واتّباعه.

وكما يسهل تمييز الصادق، كذلك يسهل تمييز من ادّعى النبوّة كاذباً. قال ابن كثير رحمه الله: وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ قال: أُنزل عليه ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) انجفل الناس إليه: أي ذهبوا إليه مسرعين.

(٢) أخرجه الترمذي برقم ٢٦٧٣، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم ٢٤٨٥.

وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾[1]. قال: ففكّر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه فقال: ولقد أُنزل عليّ مثلها. فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب[2].

الجانب الثاني: البحث في مدى تأييد الله لمحمد ﷺ:

فسأل عن قتاله وانتصاراته، لأن مدّعي النبوّة، إمّا أن يكون صادقاً، فسوف ينصره الله تعالى على أعدائه. وإما أن يكون كاذباً، فسوف يُخزيه الله تعالى ويمكّن أعداءه منه. فالله سبحانه وتعالى قد يُملي للسلطان الظالم ولا يعاجله بالعقوبة في الدنيا لحِكم كثيرة، وأما بالنسبة لمن ادّعى النبوّة كاذباً، فلا بدّ أن يخزيَه الله في الدنيا قبل الآخرة، لأن الناس قد تظنّ أن إمهال الله له دليل على إقراره في دعواه النبوّة، فيُفتنون بذلك.

ويُستأنس لهذا، بما ورد في جواب النبي ﷺ لمسيلمة الكذاب. قال ابن إسحاق: وقد كان مسيلمة بن

---

(١) سورة العصر.

(٢) البداية والنهاية (ج ٦/ص ٣٥٩).

حبيب كتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد: فإني قد أُشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«**بسم الله الرحمٰن الرحيم.**

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب... سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[1].

فهنا لمّا ادّعى مسيلمة النبوّة كاذباً، بيّن له النبي ﷺ أن العاقبة، وهي النصر والغلبة، ستكون من نصيب المتقين الصالحين، فمن ينصره الله ويؤيّده ويمكّنه من أعدائه فهو الصادق في دعواه النبوّة، وأما الكاذب فسوف يُهلكه الله ويمكّن الأعداء منه. وهذا الذي جرى على مسيلمة الكذاب، إذ لم تدُم فتنته طويلاً حتى مكّن الله المسلمين منه فقُتل وانتهت فتنتُه[2].

---

(١) البداية والنهاية (ج ٥/ص ٦٢).

(٢) الفائدة السادسة، وهي: تمكين النبي برهان على صدقه.

الجانب الثالث: البحث في تعاليم الرسالة:

الرسالة إن كانت من عند الله، فسوف تكون مشابهة للرسالات السابقة، لأنّ الرسالات السماوية كلها متفقة في أصولها وتعاليمها. وأما إن كانت مفتراة على الله، فستكون مناقضة للرسالات السابقة في أصولها وتعاليمها.

لذلك لما سمع النجاشي ملك الحبشة بعضاً من القرآن الكريم قال: «إِنّ هَذَا وَالّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ»[1]، أي: من مصدر واحد. ولما سمع هرقل ما يدعو إليه النبي ﷺ من الأمر بتوحيد الله ﷻ، والنهي عن الشرك بالله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، من صدق وعفاف ووفاء بالعهد وأداء للأمانة وغيرها، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نبي.

فالرسالات التي نزلت على الرسل متطابقة في جوهرها وأصول شرائعها، وإن اختلفت في فروع الشرائع والسنن. ومن هنا شبّه النبي ﷺ الرسل في تطابق رسالاتهم في الأصول، وتفاوتها في الفروع، بالإخوة من أبٍ واحد وأمهاتٍ متعدّدة. فروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى**

(١) سيرة ابن هشام (ج ١/ص ٣٣٥).

النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[1]. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعَلّات: الضرائر، وأصله أنّ من تزوّج امرأة ثم تزوّج أخرى كأنه علّ منها، والعَلل الشرب بعد الشرب، وأولاد العَلّات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى»[2].

❖ الرأي الذي توصّل إليه هرقل:

بعد بيان المنهج الذي اتّبعه هرقل في أسئلته، نتابع ما قاله هرقل لنطلع على الاستنتاج الذي وصل إليه بعد كل هذا.

«قال هرقل: قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقّاً، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ».

بعد أن سأل هرقل عن أحوال محمد ﷺ واستفسر عن شخصيته ومعاملة الله له وعن تعاليم رسالته، مال ميلاً عظيماً إلى التصديق بنبوّته، وقال: «**قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ**

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٤٤٣.

(٢) فتح الباري (ج ٦/ص ٤٨٩).

أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ»، أي: اجتمع عندي من علم الأوائل وبشارات الكتب السماوية السابقة: أن نبيّاً سيخرج في آخر الزمان، ولما جاءني كتاب محمد ﷺ وذكرتَ لي أحواله، تبيّن لي أنه هو النبيّ المبشّر به عندنا والذي كنا ننتظر خروجه، ولكن لم أكن أتوقّع أنه من قومكم.

وعدم توقّع هرقل أن يكون نبيّ آخر الزمان من العرب، مع أن بشارات أهل الكتاب دلّت على أن النبي الذي يخرج في آخر الزمان هو من ولد إسماعيل، وهم العرب، يَحتمل أن تكون قد فاتته هذه المعلومة، أو أنه قصد بكلمته هذه: أنه لم يكن يتوقّع أنه من قريش خاصة، لأن خطابه موجّه لأبي سفيان القرشي، وإن كان يعلم أنه سيكون من العرب عموماً.

ثم قال هرقل: «**وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقّاً، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ**»، أي: إذا كنت صادقاً يا أبا سفيان في أجوبتك عن محمد ﷺ، فلا يبقى عندي شك أنه النبيّ المنتظر، وقد وصلني من العلم فيه: أن الله تعالى سوف يمكّن له في الأرض ويفتح على يديه البلاد، حتى يصل ملكه إلى البلد الذي أقف فيه الآن، وعَنى به القدس الشريف، إذ كان هرقل فيه حين جرى هذا الحوار بينه وبين أبي سفيان.

وفعلاً بعد سنوات قليلة من هذا المجلس تحققت نبوءة هرقل، ففي السنة السادسة عشرة للهجرة، أي بعد هذا المجلس بنحو تسع سنوات، فتح الله تعالى على المسلمين بيت المقدس، وذلك في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ونبوءة هرقل في فتح المسلمين لبيت المقدس، لم تكن عن تحليلٍ منه أو رأي، بل كانت من العلم الذي تلقّاه عن أهل الكتاب في أحوال النبيّ المنتظر وأحوال أمّته. بل ذُكر أنه وصلهم من العلم صفة الخليفة الذي سيستلم مفاتيح بيت المقدس منهم.

فقد روى سيف بن عمر عن شيوخه عن سالم قال: «لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق، فقال: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لاها لله لا ترجع حتى يفتح الله عليك إيلياء»[1][2].

وقد بشّر النبي ﷺ أمّته بفتح بيت المقدس في أواخر حياته. ففي الحديث الذي رواه البخاري عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ

(١) البداية والنهاية (ج ٧/ص ٦٩).

(٢) هنا موضع الفائدة السابعة، وهي: لوحة مشرقة في فتح بيت المقدس.

تَبُوكَ، وَهْوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ[1]، فَقَالَ: «اعْدُدْ سِتّاً بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ[2]: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ[3]، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطاً، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ[4] فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً[5]، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً»[6].

«ثم قال هرقل: وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ».

أي: لو أني أعلم أني أستطيع الوصول إلى محمد ﷺ لسعيت إلى الوصول إليه، ولتكبّدتُ المشقة من أجل ذلك. والظاهر أن هرقل كان يخشى من قومه أن ينقلبوا عليه إذا آمن بمحمد ﷺ واتّبعه، وسوف

---

(١) أدَم: جلد مدبوغ.

(٢) اعدد ستاً: أي من علامات الساعة.

(٣) مُوتان: موت كثير يقع في الناس، وقعاص الغنم: هو داء يصيب الغنم فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة.

(٤) بنو الأصفر: هم الروم.

(٥) غاية: أي راية، وسمّيت بذلك لأنها غاية الجندي، فإذا وقفت وقف وإذا مشت مشى.

(٦) رواه البخاري برقم ٣١٧٦.

يتّضح لنا ما كان يقصده هرقل بهذه الكلمة قريباً بعون الله تعالى.

«**وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ**». وهي كلمة في غاية التواضع والتقدير والإجلال لمقام النّبوّة، وقد خرجت من فم أعظم أباطرة الدنيا وقتها، وأمام مسمع أبي سفيان الذي كان حينها عدواً لدوداً للإسلام ولنبي الإسلام[1].

وهذه الكلمة هي أكبر حجة على كفار العرب في زمانهم، أن ملك الروم الذي ليس بعربي ولا يفهم اللسان العربي، يعترف بنبوّة محمد ﷺ ويتمنّى أن يغسل قدميه، في حين أن قومه العرب الذين خبروا صدقه وأمانته، وأدركوا إعجاز القرآن الذي أنزل عليه، كانوا أشدّ النّاس محاربة له. قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[2].

قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستفهام في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ للإنكار، ولاستبعاد كفرهم في حال

---

(١) هنا موضع الفائدة الثامنة، وهي: شهادات القوم في نبينا محمد ﷺ.

(٢) آل عمران: ١٠١.

اجتمع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان، أي: كيف يتصوّر منكم الكفر، أو يسوغ لكم أن تسيروا في أسبابه، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضّة طريّة صباح مساء، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيكم، يردّكم إلى الصواب إن أخطأتم، ويزيح شُبَهكم إن التبس عليكم أمر»[1].



(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ٦٨٦).

شرح كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل

قالَ أَبُو سُفْيَانَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُرِئَ فَإِذَا فِيهِ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ... سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أَمَّا بَعْدُ... فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٦٤.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

نلاحظ أن النبي ﷺ بدأ كتابه بالبسملة، والمعروف من هدي النبي ﷺ أنه كان يبتدئ خطبه بالحمد والتشهد، وأما كتبه إلى الملوك وغيرهم فكان يبتدئها بالبسملة. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالابتداء بالحمد واشتراط التشهد خاص بالخطبة بخلاف بقية الأمور المهمة، فبعضها يبدأ فيه بالبسملة تامّة كالمراسلات، وبعضها ببسم الله فقط كما في أول الجِماع والذبيحة، وبعضها بلفظ من الذكر مخصوص كالتكبير. وقد جمعتُ كتب النبي ﷺ إلى الملوك وغيرهم فلم يقع في واحد منها البداءة بالحمد بل بالبسملة، وهو يؤيد ما قرّرته والله أعلم[1].

«من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم».

لما ذكر النبي ﷺ نفسه نسبها إلى العبودية، ولما ذكر هرقل نسبه إلى العظمة، فما السرّ في ذلك؟

والجواب: أن النبي ﷺ نسب نفسه إلى العبودية، لأنها أشرف وصف يوصف به الإنسان، كما قال بعض

(١) فتح الباري (ج ٨/ص ٢٢٠).

العلماء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[1]، قالوا: لو كانت هناك صفة أشرف من صفة العبوديّة لنسبها إليه، لأن هذه من أشرف الليالي، ولأن الإسراء من أشرف الكرامات[2]. وأما نسبته هرقل إلى العظمة، فمن باب التلطّف معه. فالنبي ﷺ يريد أن يدعوه إلى الإسلام، ومن المناسب أن يتلطّف معه في الخطاب رجاء إسلامه.

وهذا التلطّف مما أمر الله سبحانه وتعالى به، فلما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون أمرهما بالتلطف معه في الخطاب رغم غروره وتكبّره. قال تعالى لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾[3]. فالله سبحانه وتعالى أرشد نبيّيه الكريمين إلى أسلوب التخاطب الذي ينبغي اتباعه مع فرعون وأمثاله، وهو أن يخاطباه بالقول اللّين، لأن هذا الخطاب من شأنه أن يكسر عقدة الكِبْر عنده ويوقظ قلبه للتذكر. ومن التلطف مع رجل كبير في قومه أن تخاطبه بما يليق بمنزلته، ومن هنا خاطب النبي ﷺ هرقل بكلمة عظيم الروم. وهذه الكلمة ليس

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) موضع الفائدة التاسعة، وهي: اختيار العبودية.

(٣) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

فيها مدح ولا تزكية ولا مداهنة، وإنما هي توصيف لواقع الحال الذي عليه هرقل، فهو كبير قومه وقائدهم[1].

«سلام على من اتبع الهدى».

أفاد أن السلام من الله تعالى إنّما يناله الذين يتّبعون الهدى، وفيه ترغيب لطلب الهداية واتّباع الحق.

«أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام».

والدّعاية هي: الدعوة، أي أدعوك بدعوة الإسلام، وأدعوك بالكلمة التي يُدعى بها إلى الإسلام ويُدخل بها فيه، وهي الشهادتان. وأول ما كان يبدأ به النبي ﷺ في الدعوة إلى الإسلام هو الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وكان يوصي أصحابه بذلك. فروى البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً رضي الله عنه عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: **«إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ،**

(١) موضع الفائدة العاشرة، وهي: أنزلوا الناس منازلهم.

فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»[1].
ففي هذا الحديث يوصي النبي ﷺ معاذاً أن يبدأ دعوة أهل اليمن، وكانوا يهوداً، بالدعوة إلى عبادة الله، أي إلى توحيد الله ﷻ. وقد ورد التصريح بهذه اللفظة في رواية عند الدارقطني ففيها: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَوْحِيدُ اللَّهِ**»[2]. فإذا استجابوا لكلمة التوحيد تدرّج بعدها بدعوتهم إلى سائر أحكام الدين[3].

«**أسلم تسلم**».

أي: أسلم، فإذا أسلمت نجوت من كل ما تخافه في الدنيا والآخرة، فالجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة.

«**وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين**».

أعاد كلمة أسلم للتأكيد، وليبني عليه المعنى الآخر المترتب على إسلامه، وهو إعطاؤه الأجر مرتين.

وسبب مضاعفة الأجر له في حال إسلامه، كونه كان مؤمناً بنبيه عيسى عليه السلام ثم آمن بمحمد ﷺ. فقد

---

(١) أخرجه البخاري برقم ١٤٥٨، ومسلم برقم ١٣٢.
(٢) أخرجها الدارقطني في سننه برقم ٢٠٨٢.
(٣) موضع الفائدة الحادية عشرة، وهي: التدرّج في الدعوة.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلاَثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِي ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ. وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ. وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**»[1]. كما يحتمل أن يكون تضعيف الأجر له في حال إسلامه أنه بإسلامه سوف يُسلم خلق كثير من رعيّته متأثرين به[2]. روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً. وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً**»[3].

«فإن تولّيت فإن عليك إثم الأريسيين».

من هم الأريسيون؟ اختلف العلماء في معنى الأريسيين: فجمهور العلماء على أنهم الأكّارون أي الفلاحون.

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٠١١، ومسلم برقم ٤٠٤.
(٢) موضع الفائدة الثانية عشرة، وهي: أسباب مضاعفة الأجر.
(٣) رواه مسلم برقم ٦٩٨٠.

وذهب بعض أهل العلم، منهم الطحاوي وابن حزم، إلى أنهم طائفة من النصارى كانت تقول بنبوّة عيسى.

وطائفة الأريسيين هذه معروفة عند النصارى باسم الآريوسيين، وهم ينتسبون إلى آريوس الذي ظهر في القرن الرابع الميلادي. وآريوس هذا هو قسّيس نصراني ظهر في مصر في كنيسة الإسكندرية القُبطية، ورفض القول بالتثليث وألوهية المسيح عليه السلام ممّا استدعى تدخل بابا الإسكندرية وقتها والذي حكم على آريوس وأتباعه بالهرطقة.

وقد قام آريوس وأتباعه بنشر هذه العقيدة في مصر وبلاد الشام، وتبعه على ذلك بعض قساوسة النصارى.

ولما اشتدّ الخلاف واحتدم بين النصارى، اضطر الإمبراطور الروماني المتنصّر قسطنطين الأكبر باني القسطنطينية إلى عقد مَجْمَع كبير لقساوسة النصارى بحضور بابا الفاتيكان سلفستر الأول في مدينة نِيقية، والتي تعرف اليوم باسم مدينة بورصة التركية وهي قريبة من إسطنبول، وذلك في عام **٣٢٥**م، وعُرف بعد ذلك بمجمع نيقية الأول.

وقد أقرّ هذا المَجْمَع عقد الإيمان عند النصارى،

والذي ينصّ على القول بالتثليث، والاعتقاد بألوهية عيسى، والصّلب والفِداء، واعتماد أربعة أناجيل، ورفض الاعتراف بباقي الأناجيل، كما ذهب إلى القول بهرطقة آريوس وكل من قال بقوله، والهرطقة عند النصارى تعني الردّة عن الدين.

وقد رجّح النووي وابن حجر أن المراد بالأريسيين: الفلاحون. قال ابن حجر: لكن هذا هو الصحيح هنا، فقد جاء مصرّحاً به في رواية ابن إسحاق عن الزهري بلفظ: «**فإن عليك إثم الأكّارين**»، زاد البُرقاني في روايته: «**يعني الحرّاثين**». ويؤيده أيضاً ما في رواية المدائني من طريق مرسلة: «**فإن عليك إثم الفلاحين**»، وكذا عند أبي عبيد في كتاب الأموال من مرسل عبد الله بن شدّاد: «**وإن لم تدخل في الإسلام فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام**». قال أبو عبيد: المراد بالفلاحين أهل مملكته لأن كل من كان يزرع فهو عند العرب فلاح سواء كان يلي ذلك بنفسه أو بغيره[1].

فبناءً على هذين القولين، ما معنى قول النبي ﷺ لهرقل: «**فإن عليك إثم الأريسيين**».

أما على التفسير الأول لكلمة الأريسيين، وهم

(١) فتح الباري (ج ١/ص ٣٩).

الفلاحون، فيكون المعنى: فإن عليك إثم الضعفاء من رعيّتك الذين يسمعون منك وينقادون لأمرك، لأن عدم قبولك للإسلام سوف يحملهم على اتّباعك في هذا الرأي. قال النووي: ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتّبعونك وينقادون بانقيادك، ونبّه بهؤلاء على جميع الرعايا، لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقياداً، فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا[1]. وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الكلام حذف دل المعنى عليه وهو: فإن عليك مع إثمك إثم الأريسيين، لأنه إذا كان عليه إثم الأتباع بسبب أنهم تبعوه على استمرار الكفر، فلأَن يكون عليه إثم نفسه أولى. وهذا يعدّ من مفهوم الموافقة، ولا يعارض بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] لأن وزر الإثم لا يتحمّله غيره، ولكن الفاعل المتسبّب والمتلبّس بالسيئات يتحمّل من جهتين: جهة فعله، وجهة تسبّبه»[3].

ويدل على هذا المعنى ما رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ**

(١) شرح النووي على مسلم (ج ١٢/ص ١٠٩).
(٢) الإسراء: ١٥.
(٣) فتح الباري (ج ١/ص ٣٩).

شَيْئاً وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»[1].

وأما على التفسير الثاني لكلمة الأريسيين، وهم أتباع آريوس النصراني الموحّد، فيكون المعنى: فإن عليك إثم أتباع آريوس. ولكن كيف يُحمّل هرقل ذنب قوم لم يشهدهم؟ والجواب: أن الأريسيين تمّ اضطهادهم في عهد قسطنطين الكبير في القرن الرابع الهجري، واستمرّ اضطهادهم إلى عهد هرقل في القرن السابع الهجري، ولم يضطهدهم أباطرة الروم إلا بسبب أنهم موحّدون. فإذا رفض هرقل دعوة الإسلام والتوحيد، وأصرّ على دين الأباطرة من قبله الذين اضطهدوا الآريوسيين، فهو مشارك لهم في الإثم، لأنه رضي بفعلهم.

ويدل على هذا المعنى قول الله تعالى في اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[2]. فهذا خطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ ومع هذا أتى

---

(١) مسلم برقم ٦٩٨٠.
(٢) البقرة: ٩١.

بالمضارع في قوله ﴿تَقْتُلُونَ﴾، مع أن قتل الأنبياء إنّما وقع من أسلافهم ولم يقع منهم بقرينة قوله ﴿مِن قَبْلُ﴾، وذلك للتنبيه على أن المعاصرين يشاركون أسلافهم في الإثم لرضاهم بما فعلوا وسيْرهم على طريقتهم مع عدم استنكار جرائمهم. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعنى: فكيف قتلتم وقد نُهيتم عن ذلك! فالخطاب لمن حضر محمداً ﷺ والمراد أسلافهم. وإنما توجّه الخطاب لأبنائهم، لأنهم كانوا يتولّون أولئك الذين قَتلوا، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1] فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم. وقيل: لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك إليهم»[2][3].

و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4].

والسّواء: هو العدل والنصَفة، ومعنى الآية: يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هلمّوا وأقبلوا إلى

---

(١) المائدة: ٨١.

(٢) تفسير القرطبي (ج ٢/ص ٣٠).

(٣) موضع الفائدة الثالثة عشرة، وهي: حكم الرضى بالمنكر.

(٤) آل عمران: ٦٤.

كلمة عدل وإنصاف بيننا وبينكم، وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ندعوكم إلى أن نُفرد الله تعالى بالعبادة، فنصرف عبادتنا لله ﷻ وحده، ولا نصرفها لأحد سوى الله، مهما علا شأنُه أو ارتفعت منزلتُه.

كما لا يؤلّه بعضنا بعضاً، بأن نعظّم بعضاً منّا ونرفعه إلى درجة الألوهية، سواء كان عيسى أو أمّه مريم أو الروح القدس، وهو جبريل، أو محمداً، عليهم الصلاة والسلام، فكلهم عباد لله. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1][2].

«قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ، عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّوم، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ، فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا، وَأَمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا. فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ، قُلْتُ لَهُمْ: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي

---

(١) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩.

(٢) موضع الفائدة الرابعة عشرة، وهي: تحرير الإنسان.

كَبْشَةَ، هَذَا مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ يَخَافُهُ».

يقول أبو سفيان بأن هرقل ما إن انتهى من قراءة كتاب رسول الله ﷺ والتعليق عليه حتى ارتفعت الأصوات في مجلسه من قِبَلِ قادة الروم وعظمائهم، فما الذي استثار هؤلاء حتى ضجّوا وعلت أصواتهم؟ لا شك أن هؤلاء تكلموا بلغتهم لذلك لم يدرِ أبو سفيان ما قالوا. ولكن دلت قرائن الحال، كما يقول الحافظ ابن حجر، أن اللغط إنّما كان بسبب ما فهموه من مَيل هرقل إلى تصديق محمد ﷺ. وميل هرقل إلى التصديق ظهر بشكل واضح من خلال تعليقاته على أجوبة أبي سفيان، وخاصة في تعليقه الأخير، حين قال: «**وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ، قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقّاً، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ**».

فلما عَلَت الأصوات عند هرقل، أُمر حينها بإخراج جماعة العرب من المجلس، حتى لا يطلعوا على خلافات الروم فيما بينهم، وخاصة ما يتعلق منها بشأن محمد ﷺ، إذ لو انتشر الخبر أن ملك الروم يعظم محمداً ﷺ أو يميل إلى تصديقه، لكان هذا أعظم دعاية للإسلام، وهذا ما لا يتمنّاه عظماء الروم ولا حتى وفد

أبي سفيان يتمنّاه، لأنهم كانوا وقتها على الكفر والعداوة للنبي محمد ﷺ.

لذلك لما خرج أبو سفيان من المجلس قال للوفد المرافق له: «**لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، هَذَا مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ يَخَافُهُ**»، أي: لقد عَظُم أمر محمد ﷺ وكَبُر. فقوله: أَمِر، من الأَمَر، وهي الكثرة والعِظم والزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[1] أي: شيئاً منكراً عظيماً. وقد قالها أبو سفيان على سبيل التغيّظ والحسد، وليس من باب الإعجاب، لذلك نسب النبي ﷺ إلى أبي كبشة، وهو الجدّ الأعلى لأم الرسول ﷺ، وهو جد غامض غير معروف، بخلاف جدّه عبد المطلب المعروف عند العرب بالزّعامة والسّيادة. وقد كان من عادات العرب أنهم إذا أرادوا أن يعظّموا إنساناً نسبوه إلى جد معروف مشتَهر، وإذا أرادوا تحقيره نسبوه إلى جد غامض غير معروف. وكان الرسول ﷺ ينسب نفسه إلى جدّه عبد المطلب فيقول: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»[2]، لأنه أكثر نباهة في قريش من سائر آبائه.

---

(١) الكهف: ٧١.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٧٠٩.

«**إنه يخافه ملك بني الأصفر**» أي: ملك الروم، فبنو الأصفر هم الروم، وأطلق عليهم لقب بني الأصفر، لأن أباهم واسمه الروم، كان أصفر في بياض شديد الصفرة. والروم هو ابن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وعيصو هو الأخ التوأم لنبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد تزوج عيصو ببنت عمه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فولدت له الروم بن عيصو وخمسة آخرين[1].

«**قالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَمَا زِلْتُ مُوقِناً بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَي الإِسْلاَمَ**».

أي: ما زلت متأكداً من أن أمر محمد ﷺ سوف يظهر وينتشر حتى دخلت في الإسلام. ولا يُفهم منه أنه بعد إسلامه تغيّر يقينُه في هذا الأمر، بل المقصود أنه كان متيقّناً بأن أمر محمد ﷺ سوف يعلو ويظهر على كراهته لذلك وخوفه منه، حتى أدخل الله عليه الإسلام، ويوضّحها رواية عند الطبراني: «**فما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت**»[2][3].

---

(١) المعارف لابن قتيبة (ج ١/ص ٨)، وأعلام النبوة للماوردي (ج ١/ص ٥٤).

(٢) انظر فتح الباري (ج ١/ص ٤٠).

(٣) موضع الفائدة الخامسة عشرة، وهي: أعداء من بني جلدتنا.

❖ اجتماع هرقل مع قادة الروم:

قَالَ الزُّهْرِي: فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ، فقال... قول الزهري: «فدعا هرقل عظماء الروم فجمعهم في دار له» في هذه الرواية بعض الاختصار، وقد بيّنته رواية أخرى عند البخاري جاء فيها: «**ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ**: . . . »[1].

فيظهر من مجموع الروايتين: أن هرقل أرسل رسالة إلى صاحب له في مدينة رومية، وهي اليوم تعرف بروما عاصمة إيطاليا، وأطلعه فيها على مضمون الكتاب الذي وصله من محمد ﷺ، وما تبعه بعد ذلك من حوار بينه وبين أبي سفيان، كما أطلعه على الاستنتاج الذي توصّل إليه بشأن محمد ﷺ، طالباً من صاحبه أن يبدي رأيه في كل هذا. وكان صاحبه هذا من علماء النصرانية ويوازي هرقل في علم الكتاب الأول، ثم ترك هرقل

(١) أخرجها البخاري برقم ٧.

بيت المقدس وسار متوجّهاً إلى حمص.

وكانت حمص هي دار ملكه في الشام، وكانت أعظم في زمانهم من دمشق. فوصل هرقل إلى حمص وأقام فيها أياماً، وقبل أن يغادرها إلى بلد آخر وصله جواب رسالته من صاحبه العالم النصراني في رومية. وكان جواب صاحبه موافقاً للاستنتاج الذي توصّل إليه هرقل، من أن محمداً ﷺ هو رسول من عند الله، وأنه هو النبي الخاتم الذي بشّرت به الكتب السابقة. وعندما اطمأن هرقل إلى هذه النتيجة، أراد أن يعرض الأمر على وجهاء الروم وقادتها في حمص. فقام بدعوتهم إلى الاجتماع عنده في دسكرة له بحمص. والدَّسْكرة هي بِناءٌ على هيئةِ القَصْرِ، فيه مَنازلُ وبُيوتٌ للخَدَم والحَشَم، وهي ليست كلمة عَرَبيَّة مَحْضة[1].

فلمّا وصل قادة الروم إلى الدسكرة، أمر هرقل بأبوابها فغلّقت. والظاهر أنه فعل ذلك حتى لا ينفروا بادئ الأمر من كلامه ورأيه في محمد ﷺ ثم ينفضوا عنه إلى أتباعهم من الروم يؤلبونهم على هرقل، فأراد أن يحتاط للأمر ويجعل لنفسه خط رجعة إذا سارت الأمور على خلاف ما يشتهي.

---

(١) النهاية في غريب الأثر (ج ٢/ص ٢٦٧).

ولما اكتمل الحضور خرج عليهم هرقل، وقد بيّنت إحدى الروايات أنه وقف يخاطبهم من مكان مرتفع، ولعله صنع ذلك خوفاً على نفسه من أن يبادروا إلى قتله إذا استفزّهم حديثه[1].

«فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّوم، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِي؟».

أي: قال لهم: يا معشر الروم هل لكم إلى أن توافقوني في أمر يكون فيه فلاحكم في الدنيا والآخرة، ويكون فيه دوام ملككم إلى آخر الزمان، وهو أن تؤمنوا بالنبي محمد ﷺ وتبايعوه؟ وكأن هرقل كان مطلعاً على وعد الله تعالى لهذه الأمة بالتمكين في الأرض.

«قَالَ: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ».

أي: نفروا من مقالته تلك كما تنفر الحمر الوحشية حين ترى الأسود. وشبّه نَفرتهم بنَفرة الحمر الوحشية، لأنها أشد نفرة من سائر الحيوانات، ويضرب المثل بشدّة نفرتها[2]. فلما نفروا هاربين توجّهوا إلى

---

(١) انظر فتح الباري (ج ٨/ص ٢٢٢).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (ج ١/ص ٢٥٣).

أبواب القصر يريدون الخروج منه، إلا أنهم فوجئوا بأن أبوابه كانت قد أغلقت.

«فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُم، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الَّذِي أَحْبَبْتُ. فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ».

أي: لما رأى هرقل ردّة فعلهم العنيفة، والتي كان يتوقّعها منهم، لذلك عمد إلى إغلاق أبواب القصر قبل مخاطبتهم، كما أنه خاطبهم من مكان مرتفع حتى لا يصلوا إليه بسوء، لما رأى هرقل ذلك، أيقن بأنهم بعيدون عن الإيمان كل البعد، وأنهم لن يتقبلوه أبداً، لذلك أراد أن يحمي نفسه منهم، كما أراد أن يحمي ملكه من الضّياع، فطلب من حراسه في القصر أن يردّوهم إلى الاجتماع. فلما رجعوا قال لهم: إني عرضت عليكم ما عرضت من أمر محمد ﷺ وأنا غير مقتنع به، ولكني أحببت بذلك أن أختبر ثباتكم على دين النصرانية، وأنّكم لن ترضوا بأي دين آخر، وقد تأكد لي هذا بما رأيت من نَفرتكم، وهذا الذي كنت أحبّه منكم. وعندما قال لهم هرقل هذا الكلام، اطمأنوا إلى مَلِكهم وأنه لم يتغيّر، فخرّوا له ساجدين

تعبيراً عن رضاهم عنه وإقراراً بتملّكه عليهم[1].

❖ مصير هرقل:

والآن في خاتمة هذا الشرح، بقي سؤال مهم وهو: هل مات هرقل على الإسلام أم مات على الكفر؟

والجواب: أن ظاهر كلام هرقل الأول يدل على إسلامه دلالة ظاهرة، وذلك حين قال: «**وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ. قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقّاً، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ**».

كما أن رسالته إلى صاحبه في رومية وجوابها يدلان على إسلامه، إذ توافق رأيه ورأي صاحبه على نبوة محمد ﷺ: «**ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ**».

وأخيراً نصيحته إلى عظماء الروم حين قال لهم: «**يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ،**

---

(١) موضع الفائدة السادسة عشرة، وهي: أهمية السمع والطاعة.

وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِي؟» فكل هذا يدل على إسلامه.

وأما ظاهر كلامه الأخير فيدلّ على كفره، وذلك حين قال لعظماء الروم: «**إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الَّذِي أَحْبَبْتُ**». فكلامه هذا يحتمل أنه كان صادقاً فيه، وأنه قال ما قاله في دعوتهم لتصديق النبي محمد ﷺ من باب الاختبار لقومه، وليس من باب الرضا به، فيكون بالتالي كافراً. ويحتمل أيضاً أنه إنّما قاله مداراة لقومه حتى يحافظ على نفسه من القتل، وعلى ملكه من الضّياع، خاصة بعدما رأى من غضبهم وشدّة نفرتهم.

وينبني على الاحتمال الثاني: أنّ هرقل إن كان قد قال ما قاله من الكفر من باب المداراة لقومه، بمعنى أنه: علم أن محمداً ﷺ هو رسول من عند الله، ولكن رفض الانصياع لهذه الحقيقة بقلبه، كما رفض الإقرار بها بلسانه ولو سراً، إيثاراً للملك ولمرضاة قومه، فهذا يعني أنه مات على الكفر، كما مات أبو طالب. فإن أبا طالب كان يعلم أن محمداً هو رسول من عند الله ولكنه رفض الإقرار بهذه الحقيقة بقلبه ولسانه خشية من أن يعيّره قومه بأنه ترك دين آبائه وأجداده، أو أن يعيّروه

بأنه إنّما قال ما قال خوفاً من الموت، فأعلن قبل موته بأنه على دين عبد المطلب.

وأما إن كان هرقل قد قال ما قاله من الكفر من باب المداراة لقومه، بمعنى أنه: في قرارة نفسه علم أن محمداً ﷺ هو رسول من عند الله وأقرّ بها بقلبه ولسانه، إلا أنه خشي أن يبوح بإيمانه أمام قومه، خوفاً منهم على ملكه، ثم مات على ذلك، فهذا يعني أنه مات على الإسلام وإن كان عاصياً، لأنه كان عليه أن يجهر بإسلامه كما فعل النجاشي أصحمة. فأصحمة كان في زمن هرقل، وكان مثله ملكاً نصرانياً، وكان ملكاً على الحبشة، فلما سمع بدعوة الإسلام من جعفر بن أبي طالب ومن معه من مهاجري الحبشة، أعلن إيمانه بها في المجلس. وكان المجلس يضم كثيراً من البطارقة، فلما سمعوا بإسلامه تَنَاخَروا من حَوْله، كما نفرت عظماء الروم من هرقل لما قال ما قال، ولكن النجاشي لم يبالِ بهم بل قالَ:

«**وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاَللّهِ**»[1]. فكان الواجب على هرقل إن كان مؤمناً بالسر، أن ينصح قومه بالإيمان ولا يغشَّهم بالمداراة، لأنه مسؤول عن رعيّته. قال النبي ﷺ: «**مَا**

(١) سيرة ابن هشام (ج ١/ص ٣٣٧).

مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[1].

فلا يجوز لإمام العامّة أن يغشّ قومه خوفاً من زوال ملكه عليهم، بل عليه أن ينصحهم ولو زال ملكه. وهذا النجاشي لمّا جهر بالإيمان لم يضع ملكه بل حفظ الله عليه ملكه لما ثارت عليه ثائرة بعد ذلك، وأما هرقل فقد أضاع قومه، وأضاع ملك الشام من يده، ومن يد قومه إلى الأبد.

وفي ختام هذا المبحث لا نستطيع أن نقطع بكفر هرقل ولا بإسلامه بل نكل أمره إلى الله تعالى، وقد وردت بعض الأحاديث التي تدل على أنه مات على الكفر إلا أنها لم تصح. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما كان أمر هرقل في الإيمان عند كثير من الناس مستبهماً، لأنه يحتمل أن يكون عدم تصريحه بالإيمان للخوف على نفسه من القتل، ويحتمل أن يكون استمرّ على الشك حتى مات كافراً، وقال الراوي في آخر القصة: «**فكان ذلك آخر شأن هرقل**»، ختم به البخاري هذا الباب الذي استفتحه بحديث الأعمال بالنيّات، كأنه قال: إن صدقَتْ

(١) رواه مسلم من حديث مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ الْمُزَنِي برقم ٣٨٠.

نيّتُه انتفع بها في الجملة، وإلا فقد خاب وخسر[1].

❍ فوائد الحديث:

❖ الفائدة الأولى: فضل التثبّت في الأمور:

من يقرأ قصة هرقل هذه، لا بدّ وأن تأسِره بعض مواقف هذا الامبراطور الروماني العظيمة، سيما لمّا وصله كتاب النبي محمد ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، فلم تأخذه الحميّة حميّة العظمة والغرور، وتحمله على الغضب ورفض الكتاب ابتداء أو تمزيقه، كما حصل لقرينه كسرى ملك الفرس، بل تأنّى بالجواب وأراد أن يتثبّت من صدقية محمد ﷺ في دعواه النّبوّة.

وكم كنّا نتمنى أن يقتدي زعماء العالم الغربي اليوم ورؤساؤه بسلفهم هرقل، فلا يتعجّلوا رفض الإسلام أو اتهامه بما ليس فيه، بل يقوموا على دراسة القرآن الكريم دراسة علميّة واعية، ليتثبتوا من كونه كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فالقرآن الكريم تحدّث عن كثير من المسائل العلميّة التي لم تكن معروفة في عصر محمد ﷺ.

---

(١) فتح الباري (ج ١/ص ٤٤).

فتحدث عن نشأة السماوات والأرض، وعن نشأة الإنسان من هذه الأرض، كما تحدّث عن علم الأجنّة، وكيف يتكوّن الجنين في بطن أمّه، وعن علم البحار، وعن التاريخ الإنساني، وعن مسائل كثيرة في الكون والحياة. فكان بإمكان الغربيين، بما أوتوا من وسائل البحث العلمي، أن يقارنوا هذه المسائل القرآنية بالحقائق العلمية المكتشفة حديثاً، فإن وجدوا مسألة علميّة واحدة ذكرها القرآن الكريم تناقض ما توصّل إليه العلم الحديث من حقائق مقطوع بها، فليعلنوا هذا على الملأ، وليبيّنوا لكل الناس أن القرآن الكريم ليس بكلام الله تعالى، لأن كلام الله تعالى منزّه عن الخطأ والتناقض. وأما إن تبيّن لهم أن القرآن الكريم، على كثرة المسائل العلمية التي تناولها، وضآلة المعرفة في العصر الذي نزل فيه القرآن، لم يخطئ في مسألة واحدة قط، فليتواضعوا للحق وليبيّنوه للناس.

لما نزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ، أثار المشركون حوله بعضاً من الشبهات، فذكر الله تعالى شبهاتهم تلك ثم ردّ عليها. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾[1]. أي: وقال الذين كفروا في شأن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ: ما هذا إلا كذب وبهتان افتراه واختلقه محمد ﷺ من عند نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي وأعانه وساعده على هذا الاختلاق ﴿قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ من اليهود أو غيرهم. ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ فردّ الله تعالى عليهم بأنهم ارتكبوا بقولهم هذا ظلماً عظيماً وزوراً كبيراً، حيث وضعوا الباطل موضع الحق، والكذب موضع الصدق. ثم ذكر سبحانه مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ أي: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق في شأن القرآن، بل أضافوا إلى ذلك قولاً آخر أشدّ شناعة وقبحاً، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم، أَمَر الرسول ﷺ غيره بكتابتها له، وبجمعها من كتب السابقين ﴿فَهِيَ﴾ أي: هذه الأساطير ﴿تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تُلقى عليه ﷺ بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه، ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: في الصباح والمساء، أي: تُملى عليه خُفية في الأوقات التي يكون الناس فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم.

---

(١) الفرقان: ٤ ـ ٦.

وقد أمَر الله تعالى رسوله ﷺ بالردّ عليهم بما يُبطل شبهاتهم، فقال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ أي: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين، وأنك افتريته من عند نفسك، وأعانك على هذا الافتراء قوم آخرون... قل لهم بأن هذا القرآن قد حوى من علوم الكون والحياة ما لا يُطيق البشر الإحاطة بعلمه. قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قل لهم رداً عليهم وتحقيقاً للحق: أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفهام، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بمغيّبات مستقبلة، وأمور مكنونة، لا يهتدي إليها ولا يوقف إلا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها... ثم ختم سبحانه الآية بما يفتح باب التوبة للتائبين، وبما يحرّضهم على الإيمان والطاعة لله رب العالمين فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: إنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإيمان، وترك العصيان وعاد إلى الطاعة»[1].

(١) انظر الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ٣١١٢).

❖ الفائدة الثانية: مكارم الأخلاق عند العرب.

كان العرب قبل الإسلام، على رغم الجهالات التي اصطبَغَت بها حياتُهم وعاداتُهم، يتمتّعون بحظٍ وافر من مكارم الأخلاق. كانوا يتغنَّوْن بالمعالي والقِيَم ويعظّمون أصحابها، كما كانوا يأنفون من الرذائل والدنايا ويزدرون أصحابها. واشتهرت فيهم الصفات النبيلة من صدق وشجاعة وشهامة ونخوة ونجدة للمظلوم وإغاثة للملهوف وغيرها من مكارم الأخلاق، مما أهّلهم أن يكوّنوا بيئة صالحة لحمل هذه الرسالة المجيدة والقيام بأعبائها. ومن هنا قال نبينا ﷺ: «**إنما بعثت لأتمّم صالح الأخلاق**»[1]، أي: أن أساس مكارم الأخلاق موجود عند العرب، وإنما جاء النبي ﷺ ليبني عليه ويتمّمه.

واليوم على رغم تطوّر الحضارة الإنسانية والثورات العلمية التي اتّسمت بها، فإن مكارم الأخلاق عموماً قد تراجعت في الناس، سواء عند المسلمين أو عند غيرهم. ولعلّي في هذه العُجالة أجري مقارنة بسيطة بين ما كان عليه العرب في جاهليتهم من أخلاق محمودة، وبين ما عليه الناس اليوم.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصحّحه الألباني في الجامع الصغير وزيادته برقم ٤١١٤.

لقد شكّلت مكارم الأخلاق عند العرب أساساً متيناً لتنظيم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.

فالوفاء بالعهد كان من أهم القيم الخلُقية التي تحلّى بها العرب، بل أصبح الوفاء عند الإنسان العربي بمثابة القانون الذي يوفّر له الأمن والاستقرار. كانت أيام القبائل العربية مليئة بالغزو، والغزو المضادّ، والسلب والنهب، مما أنقص الأمن والاستقرار في حياتهم، ولكنهم في مقابل ذلك كانوا قد تواطأوا على تعظيم الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام وتعظيم الحَرَم من حولها، والذي يشمل مكة ومِنى ومزدلفة، فهو مكان آمن لكل من قصده من حاج أو معتمر أو مقيم أو زائر أو طالب راحة واستقرار. وفي الحرم تُعظّم حرمة الإنسان، فلا يعتدي فيه أحد على أحد، حتى لو وجد الرجل قاتل أبيه في الحرم لم يتعرض له بأذى. وكذا كان الحال بالنسبة للأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب، إذ تواطأوا على تعظيم الأمن في هذه الأشهر الأربعة، فامتنعوا من التقاتل فيها أو الاعتداء أو الإغارة أو الأخذ بالثأر والانتقام، من أجل أن يتمكّن الناس فيها من الحج والعمرة والتجارة دون خوف أو وجل. فجُعل الشهر الذي يؤدي فيه الناس حجّهم، وهو شهر ذي الحجة،

شهراً آمناً، وشهر قبله، وهو ذو القعدة، ليتمكّن الناس فيه من السفر للحج من مكان بعيد، وشهر بعده، وهو المحرّم، ليتمكّن الناس فيه من الرجوع إلى منازلهم، وشهر رابع، غير متصل بهذه الأشهر، لمن رغب في أداء العمرة، وهو شهر رجب. فالمكان الآمن وكذا الزمان الآمن، مكّنا النّاس من القيام بأسفارهم وإنجاز تجاراتهم وأعمالهم، فلو لم يبقَ أمن في أيامهم إلا في هذه الأشهر المحرّمة لكانت كافية في قضاء حوائجهم. وهذا الأمن في حياتهم لم يكن ليتحقّق لولا وفاؤهم بالعهد، نعم تعظيم البيت الحرام والحِمى من حوله، وكذا تعظيم الشهر الحرام، هما من الشعائر التي وصّى بها إبراهيم عليه السلام كما وصّى بها ابنه إسماعيل عليه السلام من بعده، ولكن لولا التزام العرب الأخلاقي ووفاؤهم بالعهود لمَا تحقق الأمن فيها. وأكبر دليل على ذلك أنّ الإسلام جاء وأكّد حرمة البيت أيّما تأكيد ومع هذا وجدنا من المسلمين من يستحلّ هذا البيت، كما فعل الحجّاج بن يوسف وغيره حين دكّه بالمنجنيق، مما لم تسمح به أخلاق العربي قبل الإسلام.

وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾[1].
قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والمعنى: اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يصيّر الكعبة التي هي البيت الحرام ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ أي: قوامهم في إصلاح أمورهم ديناً ودنيا، وكذلك جعل الأشهر الحرم والهدي وخصوصاً ما يقلد منه قياماً للناس أيضاً.

وذلك لأن البيت الحرام الذي يأتي الناس إليه من كل فجّ عميق، يجدون في رحابه ما يقوّي إيمانهم، ويرفع درجاتهم، ويغسل سيئاتهم، ويصلح من شؤون دنياهم عن طريق تبادل المنافع، وبذل الأموال، والشعور بالأمان والاطمئنان، وتوثيق الصلات الدينية والدنيوية التي ترضي الله تعالى، وتجعلهم أهلاً لفضله ورحمته.

ولأن الأشهر الحرم تأتي للناس فتجعلهم يمتنعون عن القتال فيها، فتهدأ نفوسهم، ويحصل التآلف والتزاور بعد التدابر والتقاطع والتعادي، ولأن الهَدْي والقلائد التي يسوقها المحرمون إلى الحرم لذبحها، فيها

---

(١) المائدة: ٩٧.

ما فيها من التوسعة على الفقراء وإشاعة روح المحبة والتسامح والإخاء.

ورحم الله الإمام القرطبي حيث يقول: والحكمة في جعل الله تعالى هذه الأشياء قياماً للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدميّة من التحاسد والتقاطع والسلب والغارة، فلم يكن بدّ في الحكمة الإلهية من وازع يزعهم ـ أي: يزجرهم ـ عن التنازع، ويحملهم على التآلف، ويرد الظالم عن المظلوم. فقد روى مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: «ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن». فجعل سبحانه الخليفة في الأرض حتى لا يكون الناس فوضى، وعظّم في قلوبهم البيت الحرام، وأوقع في نفوسهم هيبته، فكان من لجأ إليه معصوماً به، وكان من اضطهد محميّاً بالكون فيه.

ولما كان لهذا البيت موضعاً مخصوصاً ومكاناً معيّناً لا يدركه كل مظلوم، فقد جعل سبحانه الأشهر الحرم ملجأ آخر، وقرّر في قلوبهم حرمتها. فكانوا لا يروّعون فيها سرباً ـ أي: نفساً ـ ولا يطلبون فيها دماً، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه. ثم شرع لهم الهدي والقلائد، فكانوا إذا أخذوا بعيراً وأشعروه دماً، أو علقوا عليه قلادة أو فعل ذلك الرجل بنفسه، لم يروّعه أحد حيث لقيه. ﴿ذَٰلِكَ

لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واسم الإشارة «ذلك» يعود على الجَعْل المذكور، الذي هو تصيير البيت الحرام وما عطف عليه، قياماً للناس، أي: صلاحاً لأحوالهم الدينية والدنيوية. والمعنى: فعل الله تعالى ذلك لتعلموا أنه سبحانه يعلم علماً تاماً شاملاً ما في السماوات وما في الأرض، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم وهتاف أرواحهم، لأن تشريع هذه الشرائع، المستتبعة لدفع المضار ولجلب المصالح الدينية والدنيوية، دليل على أنه سبحانه يعلم ما في السماوات وما في الأرض. وعلى أنه بكل شيء عليم دون أن تخفى عليه خافية مما في هذا الكون»[1].

واليوم إذا نظرنا إلى واقعنا الذي نعيش فيه وما بذلته الحضارة الغربية من أجل ضمان الأمن والسلام في العالم، سيما بعد الحربَين العالميتين اللتين أودتا بحياة ملايين البشر، فقاموا بإنشاء هيئة الأمم المتحدة لهذه الغاية. إلا أن الخلل وقع في أمرين عظيمين؛ الأمر الأول: أن مكارم الأخلاق لم تتوفر في القوم. والأمر الثاني: أن حقدهم على الإسلام لم يزل مكنوناً في

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ١٣٨٣).

صدورهم. لذلك فشلت الأمم المتحدة في تحقيق الأمن والسلم في العالم سيما إذا تعلق الأمن بالمسلمين. ففشلت في تحقيق منطقة آمنة يأوي إليها الشعب السوري فراراً من القصف الذي لم يرحم طفلاً رضيعاً أو شيخاً فانياً أو عجوزاً كبيرة. وأسوأ من ذلك أن الأمم المتحدة أعطت الأمان لمدينتين في البوسنة أثناء اعتداء الصرب عليها بشرط أن يلقوا السلاح من أيديهم، فلما فعلوا مكّنت الأمم المتحدة الوحوش الصربية من استباحة الحرمات واغتصاب العفيفات وذبح الكبار والصغار، والأنكى من ذلك أن الكتيبة الهولندية المولجة من قِبَلِ هيئة الأمم بحماية الأهالي في المدينتين شاركت بنفسها بالاستباحة والاغتصاب.

والأمثلة على ذلك لا تعدّ ولا تحصى، والشاهد فيها أن أخلاق الناس عموماً تدنّت في عصرنا الحاضر، فانتشر الغدر والغش والخيانة والكذب، ممّا جعل مكارم الأخلاق عند العرب أمراً يُتعجب منه اليوم لنُدرته.

❖ الفائدة الثالثة: وعد الله للأمة بالتمكين:

الصحابة كانوا قليلين في أول الإسلام، فلم يزالوا في ازدياد حتى مكّن الله لهم في الأرض، وهذا تحقيق من الله تعالى للوعد الذي أعطاه للمؤمنين في قوله

تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم. وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنّة، فإنه لم يمُت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرمه. ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة

(١) النور: ٥٥.

والسلام، وأطَّدَ جزيرة العرب ومهّدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، ﷺ، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة، ﷺ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص، ﷺ، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفّاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوّة سيرته وكمال عدله. وتمّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتمّ سلام وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى،

وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ﷺ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن. ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها**»[1].

فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به، وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا»[2].

بعض المسلمين اليوم يريد أن يصوّر للناس أن طريق الصالحين وطريق الدعاة إلى الله تعالى يبدأ بالابتلاء وينتهي بالابتلاء، أي: طريق كله ابتلاء، فمن أراد سلوك الطريق فليجهّز نفسه للابتلاء حياته كلها حتى يلقى الله ﷻ. كما يريد أن يصوّر للناس أنه لا تمكين للمؤمنين في هذه الدنيا ولا نصر، وأن النصر عند هؤلاء

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان ﷺ.
(٢) تفسير ابن كثير (ج ٦/ص ٧٨).

لا يعني سوى الثبات على طريق الدين حتى الموت دون أن يعتريه انحراف أو سقوط.

وهذا الفهم مردود بنص القرآن والسنة، فالله تعالى وعد المؤمنين في القرآن الكريم بالنصر في هذه الحياة كما في الحياة الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾[1]. وروى أحمد عن أبيّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالتيسير، والسّناء، والرِفعة بالدين، والتمكين في البلاد، والنصر، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب**»[2].

وقد يتساءل البعض: ما دام النصر وعداً من الله تعالى لهذه الأمة، فما بال أمتنا اليوم لا تعرف إلا الهزائم، وحالها كما يقول الشاعر:

أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد
تجده كالطير مقصوصاً جناحاه

---

(١) غافر: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي واللفظ له، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٣٣٢.

والجواب: أن الأمة المحمدية عاشت بعد وفاة رسولها الكريم حتى اليوم أكثر من ١٤٠٠ سنة، وبقيت ممكّناً لها في الأرض، مدة طويلة ناهزت ال ١٣٠٠ سنة، ولم تنكسر شوكة الأمة وتضعف إلا بعد سقوط الخلافة العثمانية، أي: منذ مائة سنة ونيّف، ففترة ضعف الأمة وانكسارها تعتبر فترة قصيرة إذا ما قارنّاها بفترة التمكين.

والأمر الثاني: أن فترة الاستضعاف هذه لم تكن كلها استضعافاً، بل تخللها انتصار هنا أو هناك إلا أن الأمّة لم تستطع أن تحافظ على النصر.

ففي ثمانينات القرن الماضي انتصر المسلمون في أفغانستان على الاتحاد السوفياتي، الذي كان يعتبر ثاني أقوى إمبراطورية في الأرض، ومكّن الله تعالى لهم في البلاد، إلا أنهم سرعان ما خسروا هذا النصر بسبب الخلافات التي دبّت بينهم. فوعد الله بالتمكين لهذه الأمة هو مستحق لكل من آمن بالله وعمل صالحاً وعبد الله بحق من هذه الأمة، وليس لكل أحد من هذه الأمة، فلذلك لما أخلّت الأمة بهذه الشروط، تخلّف الوعد بالتمكين لتخلف شرطه.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية [1]، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْواً مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ سِرّاً وَهُمْ خَائِفُونَ لا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُمِرُوا بَعْدُ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلاحِ، وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلاحِ، فَغَبَرُوا[2] بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَدَ الدَّهْرِ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا، مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السِّلاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَنْ تَغْبُرُوا إِلا يَسِيراً حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِياً لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ**»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السِّلاحَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺ فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنَيْنِ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) غبروا أي: لبثوا ومكثوا.

وَكَفَرُوا بِالنِّعْمَةِ فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رُفِعَ عَنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الْحَجَزَةَ، وَالشُّرَطَ وَغَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بِهِمْ»[1].

❖ الفائدة الرابعة: تحريم الغدر:

لما كان الغدر من الصفات المذمومة، برّأ الله تعالى منها أنبياءه، فالأنبياء لا يغدرون. بل جعل الله تعالى أنبياءه أكمل الناس صفات وأحسنهم أخلاقاً، لأنهم في مقام التأسي بهم والاقتداء بهديهم.

وكما نزّه الله أنبياءه عن الغدر، نزههم كذلك عما يمتّ للغدر بأيّ صلة.

ومن ذلك ما رواه أبو داود والنسائي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلا ستة، منهم عبد الله بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان رضي الله عنه. فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البَيْعة، جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله بايع عبد الله. فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى. فبايعه بعد ذلك، ثم أقبل إلى أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا**

(١) تفسير ابن أبي حاتم (ج ١٠/ص ١٩٤).

حين رآني كفَفْتُ عن مبايعته فيقتله». فقالوا: يا رسول الله، ما ندري ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين**»[1].

واختُلف في المراد بخائنة الأعين، كما قال ابن الصلاح في مشكله. فقيل: هي الإيماء بالعين، وقيل: مسارقة النظر، وعبارة الرافعي هي: الإيماء إلى مباح من ضرب أو قتل على خلاف ما يُظهر ويُشعر به الحال. وإنما قيل لها خائنة الأعين تشبيهاً بالخيانة، من حيث إنه يُخفي خلاف ما يظهر، ولا يحرم ذلك على غيره إلا في محظور[2].

وكما نزّه الله تعالى أنبياءه عن الغدر، أحبّ للمؤمنين أن يتأسوا بهم في ذلك، فحرّم عليهم الغدر.

روى أحمد وغيره عن أنس ﷺ قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**»[3]. وروى مسلم عن حُذَيْفَة بْن الْيَمَانِ

---

(١) رواه أبو داود والنسائي، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٢٦٨٣.
(٢) غاية السول في خصائص الرسول ﷺ (ج ١/ص ٢٦).
(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٠٠٤.

ﷺ قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْراً إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ (وحسيل اسم والد حذيفة، واليَمان لقب له)، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّداً، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ. فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ. فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «**انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ**»[1].

وروى أبو داود عَنْ سُلَيْم بْنِ عَامِرٍ ـ رَجُلٍ مِنْ حِمْيَرَ ـ قَالَ: كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ، وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ. فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ. فَنَظَرُوا، فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**[2]، **فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٤٧٤٠.

(٢) أي يرمي عهدهم إليهم بإخبارهم بأنه نقض العهد، على تقدير خوف خيانتهم.

(٣) أخرجه أبو داود، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٢٧٥٩.

فبهذه الأخلاق الرفيعة استطاع الإسلام أن ينتشر في الأرض، وأن يَرسَخ في قلوب الناس. وأما الذين ادّعوا أن الإسلام انتشر بالسيف والعنوة، فيلزم من قولهم هذا: أن يتخلى أهل البلاد التي فتحها المسلمون عن الإسلام بعد انحسار قوّة المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، لأن الناس دخلوا في الإسلام عن قناعة تامّة، بسبب ما رأوا من عظمة الإسلام وأخلاق المسلمين. واليوم نجد في بعض الشباب الغَيور على دينه من يمارس في جهاده القتل بصُوَر وحشيّة ومنفّرة، لاعتقاده أن هذا التوحّش سوف يلقي الرعب في قلوب أعداء الدين. وهؤلاء لم يفهموا الغاية من الجهاد، وهي تذليل العقبات التي تحول دون هداية الناس ووصول الحق إليهم، فكيف نجعل الجهاد نفسه عقبة تَحُول دون هداية الناس من خلال ممارسة الأساليب الوحشية!

❖ الفائدة الخامسة: بين الابتلاء والتمكين:

ذكرنا أن الرسل تُبتلى، وأن الابتلاء ليس خاصاً بالرسل، بل هو ملازم للصالحين، وخاصة الدعاة إلى الله منهم. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ

إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾[1]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبتَلُوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فُعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وهي: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب»[2].

وروى البخاري عن خَبَّاب بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ. قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[3].

❀ ❀ ❀ ❀

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) تفسير ابن كثير (ج ١/ص ٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري برقم ٣٦١٢.

الحكمة من الابتلاء

والحكمة من الابتلاء هي: غربلة الصفوف وتمييز المؤمنين عن المنافقين وأصحاب القلوب المريضة. وبالابتلاء يكتشف المؤمنون الثغرات والعوائق التي كانت تحول بينهم وبين التمكين في الأرض فيعملوا على إزالتها.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾[1]. قال سيد طنطاوي: «والمعنى: ليس من شأن الله تعالى ولا من حكمته وسنته في خلقه أن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه من الالتباس واختلاط المنافقين بكم، بل الذي من شأنه وسنّته أن يبتليكم ويمتحنكم بألوان من

(١) آل عمران: ١٧٩.

المصائب والشدائد حتى يتميز المؤمنون من المنافقين، وينفصل الأخيار عن الأشرار. قال ابن كثير: أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليّه ويفضح به عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله، وهتك به ستار المنافقين، فظهرت مخالفتهم، ونكولهم عن الجهاد، وخيانتهم لله ولرسوله. قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد. وعبّر سبحانه عن المؤمن بالطيّب، وعن المنافق بالخبيث، ليسجّل على كل منهما ما يليق به من الأوصاف، وللإشعار بعلة الحكم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾.

والغيب: ضد المشاهد، وهو: كل ما غاب عن الحواس ولا تمكن معرفته إلا عن طريق الوحي من الله تعالى على رسوله ﷺ. واجتبى: من الاجتباء بمعنى الاختيار والاصطفاء. أي: وما كان الله تعالى ليعطي أحداً منكم ـ معشر المؤمنين ـ علم الغيوب الذي به تعرفون المؤمن من المنافق، إذ علم ذلك له وحده، ولكنه سبحانه يصطفي من رسله من يريد اصطفاءه فيطلعه

على بعض الغيوب، وأطلعه على حال تلك المرأة التي أرسلها حاطب بن أبي بلتعة برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول ﷺ لحربهم، وأطلعه على بعض أحوال المنافقين»[1].

إذاً لا بد من الابتلاء، ولكن القضيّة لا تقف عند الابتلاء، أو تنتهي عنده، بل بعد الابتلاء سيكون التمكين. والحكمة من الابتلاء قبل التمكين: أن تتغربل صفوف المسلمين من المنافقين، فلو كانت أيام المؤمنين كلها نصر وظفر وغنائم لما تميّز صفهم ولما ظهر نفاق المنافقين. والمنافقون في المدينة لم يظهر نفاقهم إلا في الشدائد، كما ظهر في غزوة أحد حين تخلفوا عن الجيش الإسلامي. فإذا كان الابتلاء فتغربلت الصفوف وظهر النفاق ثم جاء التمكين من بعد ذلك، فحينها لن يكون للمنافقين دور في قيادة الأمة. وأما لو كان التمكين قبل الابتلاء والتمحيص، وقبل أن تتغربل الصفوف، لم يَبعُد أن يصل المنافقون والمفسدون والوصوليون إلى موقع القرار، وحينها سوف يفسدون في البلاد باسم الدّين، ويشوّهون بذلك صورة الدين. فالتمكين في الأرض له هدف في الإسلام، وهو هداية

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ٨١٠).

الناس وإرشادهم إلى طريق الحق، ولن يحمل هذا الهدف بجدارة وأمانة إلا الذين اصطفاهم الله بصبرهم وثباتهم عند الابتلاء. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسئل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيُّما أفضلُ للرجل، أن يُمكَّن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكَّن حتى يُبتلى. والله تعالى ابتلى أُولي العَزْمِ مِن الرسل فلما صَبَرُوا مكَّنهم»[1].

فالتمكين في الأرض بنظر الإسلام، ليس فرصة للمسلمين ليتذوّقوا طعم الرياسة والملك والاستعلاء على عباد الله، أو لينهبوا خيرات البلاد ويعيشوا في الأرض فساداً، بل هو فرصة لنشر الإسلام بإظهار عدله ورحمته وسماحته.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[2]. فالأمة المسلمة إذا ما تمكّنت في البلاد، نشرت فيها العدل والرحمة بين الناس، وهذا واجبها الذي هُيّئت له. وأما سائر الأمم، فإنها إذا تمكّنت في البلاد قهرت الشعوب ونهبت خيراتها.

لما دعا نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلقيس ملكة سبأ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (ج ٣/ص ١٤).
(٢) الحج: ٤١.

إلى الإسلام، احتارت في أمره، هل هو طامع في هدايتها أم في ملكها. فأرسلت إليه بهدية ثمينة تختبره بها، فإن كان طالب دنيا فسيقبل هديتها وينصرف عن دعوتها، وإن كان طالب آخرة فسيصرّ على دعوتها ويزهد بهديتها. فإن تبيّن لها أنه طالب دنيا فلن تستسلم له أبداً، لأنها تعلم من طباعهم أنهم لا يشبعون فإذا تمكنوا في البلاد قهروا الشعوب ونهبوا الخيرات بخلاف أهل الآخرة. فقالت كما أخبر الله عنها ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فصدّقها الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴿٣٤﴾﴾[1].

فما ذكرته بلقيس عن الملوك، وصدقها الله تعالى فيه هو شأن أهل الدنيا منهم، وأما من يحمل رسالة الله إلى البشرية فليس له طمع بما في أيدي الناس، وإنما طمعه في هدايتهم. لذلك لما وصلت الهدية إلى نبي الله سليمان زهد فيها قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴿٣٦﴾﴾[2].

وبهذا تميّزت هذه الأمة عن سائر الأمم، أنها أمة

---

(١) النمل: ٣٤.

(٢) النمل: ٣٦.

هداية ورحمة، ولهذا مكّن الله لها في الأرض. وأمّا إذا فقدت الأمة تميّزها، وصارت كسائر الأمم تفتح البلاد من أجل العلوّ في الأرض والاستكبار على العباد، فحينها لن يُمكّن لها في الأرض.

وكما قضت سنّة الله تعالى بعدم التمكين لمن ادّعى النبوة كاذباً، حتى لا يظنّ الناس أن التمكين له دليل على صدق نبوّته، كذلك لا يمكّن الله تعالى لمن ادّعى أنه يحمل ميزات هذه الأمة كاذباً، حتى لا يسيء الناس الظنّ بهذا الدّين.

❖ الفائدة السادسة: تمكين النبي برهان على صدقه:

ذكرنا أن تمكين الله تعالى لمن ادّعى النّبوّة هو من البراهين على صدق دعواه. ولنطّلع على مناظرة جرت بين ابن القيم وبين أحد كبار اليهود في هذا الباب.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يُشير إليه اليهود بالعلم والرّياسة. فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره، إذا قلتم: إن محمداً ملك ظالم قهر الناس بسيفه وليس

برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدّعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافّة، ويقول أمرني الله بكذا ونهاني عن كذا وأوحى إليّ كذا، ولم يكن من ذلك شيء، وهو يَدأَبُ في تغيير دين الأنبياء ومعاداة أممهم ونسخ شرائعهم، فلا يخلو: إما أن تقولوا أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا إنه خَفي عنه ولم يعلم به. فإن قلتم: لم يعلم به، نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه. وإن قلتم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو: إما أن يكون قادراً على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا، فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً وهو مع ذلك يُعزّه وينصره ويُؤيّده ويُعليه ويُعلي كلمته ويُجيب دعاءه ويُمكّنه من أعدائه، ويُظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسّفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته، وبتأييده وبكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب. فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفترٍ، بل هو نبيّ صادق، من اتّبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا

تدخل في دينه؟ قال: إنما بعث إلى الأمّيين الذي لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتّبعه. قلت له: غُلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأنّ من لم يتّبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحّت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به. فأمسك ولم يحِر جواباً»[1].

❖ الفائدة السابعة: لوحة مشرقة في فتح بيت المقدس:

لما حاصر المسلمون بيت المقدس، سارع النصارى إلى الموافقة على الصلح إلا أنهم شرطوا أن يقدم الخليفة عمرُ ﷺ من المدينة ليباشرَ الصلح بنفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر يُخبره بشرطِ أهل بيت المقدس، فشاور عمرُ أصحابه في الخروج، ثم انشرح صدرُه لذلك، وكتب عمر إلى أُمَراء الأجناد أن يوافوه بالجابية من أرض الشام.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقدم إلى الجابية، وهي قصبة حوران، فخطب بها خطبةً مشهورةً متواترة عنه.

---

(١) هداية الحيارى (ج ١/ص ٨٧).

قال زهير بن محمد المروزي: حدثني عبد الله بن مسلم بن هرمز أنه سمع أبا الغادية المزني قال: قدم علينا عمرُ الجابية، وهو على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه عمامةٌ ولا قلنسوة، بين عُودَيْن، وطَاؤه فرو كبْش نجدي، وهو فراشه إذا نزل، وحقيبتُه شملةٌ أو نَمِرةٌ مَحْشوةٌ ليفاً وهي وسادته، عليه قميص قدِ انخرق بعضه، ودَسَم جيبُه»[1].

وواصل عمر ﷺ مسيره إلى بيت المقدس على تلك الحال المُتَواضِعَة؛ فعرضت له مخاضة طين.

قال طارق بن شهاب: «لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقَيْه فأمسكهما بيد، وخاض الماء ومعه بعيره. فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صُنعاً عظيماً عند أهلِ الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ في صدره وقال: أو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ النَّاس، وأحقر النَّاس، وأقلَّ النَّاس، فأعزَّكم الله بالإسلام فَمَهْمَا تَطْلُبوا العزَّ بغيره يذلكم الله»[2].

---

(١) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (ج ٣/ص ١٦٢).

(٢) البداية والنهاية (ج ٧/ص ٧٠).

❖ الفائدة الثامنة: شهادات القوم في فضل نبينا ﷺ:

هذه الكلمة التي قالها هرقل وشهد فيها بعظمة النبي ﷺ وعلوّ قدره، لم تكن شهادة يتيمة من ملك نصراني، بل سبقتها شهادات، كما أعقبتها شهادات لرجال كبار في النصرانية وفي قومهم، اعترفوا فيها بفضل نبينا ﷺ وعظيم قدره.

وهاكم نبذة من شهادة هؤلاء المنصفين[1]:

١ ـ يقول الزعيم الهندي (مهاتما غاندي) في حديث لجريدة «ينج إنديا»: «أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر... لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول، مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول

(١) منقول عن مقال للفاتح محمد التوم بعنوان «أقوال مفكرين غير مسلمين عن نبينا ﷺ».

وجدت نفسي أسِفاً لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة».

وأضاف الزعيم الهندي المهاتما غاندي في مكان آخر: «إن نبي الإسلام هو الذي قادني إلى المناداة بتحرير الهند»، «العظيم الخالد إلى الأبد محمد بن عبد الله رسول الإسلام كان قادراً على السيطرة على العالم كله، ومع ذلك ترك نفسه إنساناً بالإسلام ولم تستطع شهوة الشيطان في السيطرة أن تحوم حتى حوله فعاش نبي الإسلام رسولاً، بشراً عادياً أمام إخوانه من الناس، كواحد منهم رغم أنه اصطفاء إلهي».

٢ ـ يقول المستشرق الألماني (برتلي سانت هيلر) في كتابه «الشرقيون وعقائدهم»: «كان محمد رئيساً للدولة وساهراً على حياة الشعب وحريته، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب أحوال زمانه وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كان يعيش النبيُّ بين ظهرانيها. فكان النبي داعياً إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفاً ورحيماً حتى مع أعدائه، وإن في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية، وهما: العدالة والرحمة».

٣ ـ ويقول الفيلسوف الإنجليزي (برناردشو) في كتابه «محمد»، والذي أحرقته السلطة البريطانية: «إن

العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيّات، خالداً خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوروبا). إنّ رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجةً للجهل أو التعصّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمةً، لقد كانوا يعتبرونه عدوّاً للمسيحية، لكنّني اطّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبةً خارقةً، وتوصلت إلى أنّه لم يكن عدوّاً للمسيحية، بل يجب أنْ يسمَّى منقذ البشرية، وفي رأيي أنّه لو تولّى أمر العالم اليوم، لوفّق في حلّ مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».

٤ ـ ويقول (سنرستن الآسوجي) أستاذ اللغات السامية، في كتابه «تاريخ حياة محمد»:

«إننا لم ننصف محمداً إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا، فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجيّة، مصراً على مبدئه، وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ».

٥ ـ ويقول (مايكل هارت) في كتابه «أعظم مائة رجل في التاريخ»: «إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يُدهش القرّاء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي.. فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليهم سواهم، كموسى في اليهودية، ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتمّ رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً، وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم أيضاً في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمّها».

٦ ـ ويقول الأديب العالمي (ليو تولستوي)، الذي يُعدّ أدبه من أمتع ما كتب في التراث الإنساني قاطبة عن النفس البشرية:

«يكفي محمداً فخراً أنّه خلّص أمةً ذليلةً دمويةً من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم

طريقَ الرُّقي والتقدم، وأنّ شريعةَ محمدٍ، ستسودُ العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

ويقول هذا الأديب الروسي في مكان آخر: «لا يوجد نبي حظي باحترام أعدائه سوى النبي محمد مما جعل الكثرة من الأعداء يدخلون الإسلام».

ويتابع الأديب الروسي: «أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد، الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه وقلبه وعقله، ليكون هو أيضاً آخر الأنبياء حيث لم يأت ولن يأتي بعده جديد. اعتراف محمد بالأنبياء الذين سبقوه بتكليف من الإله الواحد ليقدّموا البناء الاجتماعي العالمي الذي جاء يستكمله، دليل لا يقبل الشك، فقد جاء محمد ليستكمل بالإسلام البناء الاجتماعي للإنسان في كل مكان، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمّتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وفتح لها طريق الرقيّ والمدنيّة».

ويضيف ليو تولستوي في كتابه (حِكَم النبي محمد):

«هو مؤسس دين ونبي الإسلام الذي يدين به أكثر من مائتي مليون إنسان (الكلام عام ١٩١٢م)، فإنه قام بعمل عظيم، فإنه هدى الوثنيين الذين قضوا حياتهم

بالحروب الأهلية وسفك الدماء، فأنار أبصارهم بنور الإيمان وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله».

٧ ـ ويقول سليم قبعين، مترجم كتاب تولستوي في مقدمته، وهو مسيحي لبناني:

«بعد اطلاعي على رسالة الأديب الروسي ليو تولستوي عن الإسلام وعن النبي محمد، هالني ما جاء فيها من الحقائق الباهرة فدفعتني الغيرة على الحق إلى ترجمتها إلى العربية».

٨ ـ ويقول الدكتور (شبرك) النمساوي: «إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ إنّه رغم أُمّيته، استطاع قبل بضعة عشر قرناً أنْ يأتي بتشريع، سنكونُ نحنُ الأوروبيين أسعد ما نكون، إذا توصلنا إلى قمّته».

٩ ـ المصلح الاجتماعي الإنجليزي توماس كارليل، كان مولعاً بالشخصيّات التي غيّرت مجرى التاريخ، وأفرد في كتابه «الأبطال» فصلاً كاملاً للحديث عن الرسول الكريم ﷺ، واستعرض فيه نواحي العظمة في حياته وردّ على افتراءات الكارهين له ولرسالته العظيمة حتى أنه اتُهم بالتحيّز للإسلام.

ومما قاله: «قوم يضربون في الصحراء عدة قرون

لا يؤبه بهم ولهم، فلما جاءهم النبي العربي أصبحوا قِبلة الأنظار في العلوم والمعرفات، وكثروا بعد قلة، وعزّوا بعد ذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم..».

كما يفنّد كارليل مزاعم الكارهين، مدافعاً عن رسول الإسلام والرسالة بقوله: «لم يكن رسول الإسلام من محبّي الشهرة كما يدّعي البعض، لم يكن في فؤاد ذلك النبي العظيم أي طمع دنيوي، لأن الذي يتمسك بحبل الله لا تَهُمّه الظواهر ولا السطحيّات، فقد تمسّك بحبل الله ضارباً حسابا الربح والخسارة عُرض الحائط، غير مهتمّ بجاه أو شهرة أو سلطان، ولو كان يريد ذلك لركن إلى أقوال الذين ساوموه على ذلك، لكنه أقسم أنهم لو وضعوا في يديه القمر والشمس على أن يترك هذا الدين ما تركه».

ويضيف هذا الفيلسوف الإنجليزي الحائز على جائزة نوبل في كتابه «الأبطال»: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث، هذا العصر، أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوِّر، وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي

مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة!».

١٠ ـ أما الشاعر والأديب الألماني يوهان فولفجانج جوته:

فقد اطلع على القرآن الكريم والسيرة النبوية، وكان معجَباً بشخصية الرسول نظراً لما قام به من تأسيس الفكر والدين الإسلامي، وأنه لم يقصر حياته على مجرد بثّ التعاليم الدينية، ولكنه استخدم في توصيل رسالته ودعوته وسائل كفاح دنيوية.

وقد ظهر هذا الإعجاب من خلال أشعاره، وأعماله الأدبية والتي نذكر منها «تراجيديا محمد». هذا الكتاب الذي انقسم إلى فصلين؛ الأول: تحدث فيه عن بعثة محمد ﷺ، أما الفصل الثاني: فقام بتصوير معاناة الرسول أثناء تبليغه الرسالة وما قاساه من المشركين خلال ذلك.

كما اختص جوته الرسول محمد «ﷺ» بقصيدة مدح طويلة، مشبّهُه بالنهر العظيم الذي يَجُرّ معه الجداول والسواقي في طريقه إلى البحر، كما قام بكتابة مسرحية أيضاً عن الرسول ولكنها لم تكتمل لوفاته.

وعن الرسول قال جوته: «كان الرسول مُعَدّاً إعداداً ربانيّاً انفرد به من بين سابقيه من الرسل والأنبياء على كثرتهم».

كما قال: «كان رسول الإسلام متواضعاً مُحبّاً للخير وجاءته رسالة الخير، استطاع بحبّه لرسالته أن يجعلها تمتد وتنتشر وتضرب جذورها في أعماق النفس البشرية التوّاقة دائماً للتعرّف على النواحي الإيجابية في الحياة حول العالم».

ويضيف الأديب الألماني جوته: «إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدّم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مَثَلٍ أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد . . . وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد».

١١ ـ قال الشاعر الفرنسي الشهير لامارتين:

«أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة

الإنسان! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرّساً لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي، هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرّع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسّس عبادة غير قائمة على تقديس الصُوَر هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق. أيُّ رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأيُ إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ، لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق».

ويُضيف لامارتين: «إن محمداً أقل من الإله وأعظم من الإنسان العادي، أي: أنه نبي».

١٢ ـ قال الكاتب المسرحي البريطاني جورج برنارد شو:

«قرأت حياة رسول الإسلام جيداً مرات ومرات، لم أجد فيها إلا الخلق كما يجب أن يكون، وأصبحت أضع محمداً في مصاف بل على قمم المصاف من الرجال الذين يجب أن يتبعوا.

ولما قرأت دين محمد أحسست أنه دين عظيم،

وأعتقد أن هذا الدين العظيم سيسود العالم ذات يوم قريب مقبل إذا ما وجد الفرصة لانتصاره، ليتعرف العالم عليه بلا تعصب».

وقال أيضاً: «لو أن محمداً وجد في هذا العالم اليوم لاستطاع بقوة إقناعِه أن يحلّ كل مشكلات العالم وأن يجعل الحب والسلام هم الحياة، ولا شك أن الإسلام ونبي الإسلام، استطاعا أن يجعلاني أقف باحترام شديد للرسالة ورسولها، وتمنّيت دائماً بأن يكون الإسلام هو سبيل العالم، فلا منقذ له سوى رسالة محمد. أرجو أن تفهموا نبوءتي: فالإسلام قادم ليصبح العالم به في حب وسلام، فقد دخل وما يزال يدخل الإسلام كثرة هائلة من بني قومي ومن الأقوام الأخرى، حتى ليمكن أن يقال أن تحوّل أوروبا إلى الإسلام قد بدأ.

لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة... هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحّدها على مدى التاريخ».

١٣ ـ يقول المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه العرب: «لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾. كان محمد رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق.

١٤ ـ يقول الشاعر والكاتب الفرنسي فولتير وصاحب حركة الاستنارة الفرنسية في القرن الثامن عشر، والذي كان يؤمن بالتسامح الديني، عندما تحدّث عن رسول الإسلام قال: «السنن التي أتى بها محمد كانت كلها ما عدا تعدّد الزوجات قاهرة للنفس ومهذّبة لها، فجمال تلك الشريعة وبساطة قواعدها الأصلية جذبا للدين المحمدي أمماً كثيرة أسلمت. ويتابع قائلاً: إنه دين يستحق الإعجاب والإجلال والتقدير، ذلك لأنه جعل زنوج أواسط إفريقيا، يشعرون بآدميّتهم، وجعل سكان جزر البحر الهندي يعرفون أن هناك قوة غير التي اعتادوا عليها. وينفي ما يتردّد حول أن الإسلام استولى قهراً وبالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية، فيقول: هذه شائعات تحاول أن تقلّل من قيمة الإسلام ورسوله، وإن الدليل على ذلك أن كثيرين اعتنقوا الإسلام وهم بعيدون عن بلاده وغزواته وفتوحاته، فكيف إذن وصلهم السيف الذي يدّعيه مؤرّخونا وخطباؤنا!» ويضيف الفيلسوف الفرنسي فولتير: «لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض ... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء

بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغيّر قط».

١٥ ـ يقول برتراند راسل، وهو أحد فلاسفة بريطانيا الكبار، والحاصل على جائزة نوبل للسلام عام **١٩٥٠**، قال: «لقد قرأت عن الإسلام ونبي الإسلام فوجدت أنه دين جاء ليصبح دين العالم والإنسانية، فالتعاليم التي جاء بها محمد والتي حفل بها كتابه ما زلنا نبحث ونتعلق بذرّات منها وننال أعلى الجوائز من أجلها. وكان محمد بتعاليمه وكتابه أحق بكل الجوائز، لكنه لم يسعَ إلى ذلك، وترك الأمور تسير بطبيعتها حتى لا يُتّهم بأن الإسلام بالسيف ساد وانتشر. لقد كانت وما زالت ديانة محمد توحيداً سهلاً، ولم يزعم لنفسه أنه إله، ولا زعم أتباعه له هذه الطبيعة الإلهية نيابة عنه، لقد كانت الأخلاق الإسلامية منذ محمد وحتى اليوم وغداً هي المفتاح الحقيقي للإنسان الذي يحلم بأن يكون لوجوده معنى».

١٦ ـ قال الفليسوف الفرنسي جان جاك روسو: «لم ير العالم حتى اليوم رجلاً استطاع أن يحوّل العقول والقلوب من عبادة الأصنام إلى عبادة الإله الواحد إلا محمداً. ولو لم يكن قد بدأ حياته صادقاً أميناً ما صدّقه أقرب الناس إليه، خاصة بعد أن جاءته السماء بالرسالة لنشرها على بني قومه الصِلاب العقول والأفئدة. لكن

السماء التي اختارته بعناية كي يحمل الرسالة، كانت تؤهله صغيراً، فشبّ متأمّلاً محباً للطبيعة ميالاً للعزلة لينفرد بنفسه». ويؤكد روسو قائلاً: «لو أن محمداً عاش مدّة أطول مما عاش، لأصبح الإسلام ورسوله سادة العالم».

❖ الفائدة التاسعة: اختيار العبودية:

نسب النبي ﷺ نفسه إلى العبودية لأنها الخِيار الذي اختاره. فقد روى أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْم خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ. فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ: أَفَمَلِكاً نَبِيّاً يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْداً رَسُولاً؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «**بَلْ عَبْداً رَسُولاً**»[1]. فنبيّنا ﷺ خُيّر بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون ملكاً نبياً، فاختار العبودية مع الرسالة. ومعنى أن يكون ملكاً نبياً: أي أن يُجمع له المُلك والنبوّة معاً، فيوسف وداود وسليمان عليهم السلام، كانوا ملوكاً وكانوا أنبياء في الوقت ذاته.

---

(١) أخرجه أحمد برقم ٧٣٥٩، وصحّحه الألباني في الصحيحة برقم ١٠٠٢.

ومعنى اختياره ﷺ للعبودية على الملك: أنه لا يكون له ما يكون للملوك من التوسّع في الملذّات المباحة. وقد كان لهذا الاختيار آثاره العملية في حياة الرسول ﷺ ولم يكن مجرّد كلمة تقال. فمن آثاره:

١ ـ عدم التوسّع في المآكل والمشارب.

روى البغوي عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْ شِئْتُ، لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إِنَّ حُجْزَتَهُ لَتُسَاوِي الْكَعْبَةَ، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: إِنْ شِئْتَ نَبِيّاً عَبْداً، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيّاً مَلِكاً. فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ عليه السلام، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ، فَقُلْتُ: نَبِيّاً عَبْداً**». قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذلِكَ لا يَأْكُلُ مُتَّكِئاً، يَقُولُ: «**آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ**»[1].

فمن آثار اختياره للعبودية على الملك أنه ﷺ لم يكن يجلس للأكل وهو متّكئ، لأنه مدعاة إلى التوسّع في الأكل. ونقل القاضي عياض في الشفاء عن المحققين أنهم فسرو الاتكاء بالتمكّن للآكل في

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة برقم ٣٦٨٣، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ٢٠٤٥: الحديث صحيح دون جملة الحجزة، وبلفظ: «بل عبداً رسولاً».

الجلوس، كالمتربّع المعتمد على وِطاء تحته، لأن هذه الهيئة تستدعي كثرة الأكل[1].

وقوله: «**آكل كما يأكل العبد**»: أي: مما يتيسّر له من أدنى المأكول. «**وأجلس كما يجلس العبد**»: أي: يجلس إما على الركبتين كهيئة الصلاة وهو أفضل الهيئات، أو برفع إحدى الركبتين حالة الأكل أو غيره، أو برفع الركبتين على صفة الاحتباء، وهو أكثر أنواع جلوسه في غير الصلاة[2]. ومما يبيّن صفة جلوسه للأكل: ما رواه البغوي عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلْ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ مُتَّكِئاً فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ. فَأَصْغَى بِرَأْسِهِ حَتَّى كَادَ أَنْ تُصِيبَ جَبْهَتُهُ الأَرْضَ، قَالَ: «**لا، بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ**»[3].

٢ ـ التقشف في العيش.

إذا أجرينا مقارنة سريعة بين طريقة النبي ﷺ في العيش وطريقة نبي الله سليمان عليه السلام، ندرك

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (ج ١٧/ص ١).
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (ج ١٧/ص ١).
(٣) أخرجه البغوي في شرح السنة ٢٨٣٩، وصحّحه الألباني في الصحيحة برقم ٥٤٤.

بعض الفرق بين العبودية والملك. ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمر ﷺ في اعتزال النبي ﷺ لنسائه، ورد بعض الوصف لطريقة عيشه عليه الصلاة والسلام، فجاء فيه، «قال عمر: فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى رَمْلِ حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. ثم قال: فَجَلَسْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فِي الْبَيْتِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئاً يَرُدُّ الْبَصَرَ إِلَّا أُهُباً ثَلَاثَةً[1]، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى أُمَّتِكَ، فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ. فَاسْتَوَى جَالِساً ثُمَّ قَالَ: «**أَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**»[2]. فهذا الحديث يصوّر كيف كان عيش النبي محمد ﷺ. وأما نبيّ الله سليمان عليه السلام، فقد كان يعيش في قصر مُنيف، ولما رأته بلقيس ملكة سبأ تعجّبت من جماله وحسنه. قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن

(١) الأهب: جمع إهاب، وهو الجلد قبل الدباغ.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٥٨٤٣، ومسلم برقم ٣٧٦٨ واللفظ لمسلم.

قَوَارِيرَاْ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم ختم سبحانه هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان، لتزداد يقيناً بوحدانية الله تعالى، وبعظم النعم التي أعطاها سبحانه له. فقال: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، والصّرح: القصر، ويطلق على كل بناء مرتفع، ويطلق أيضاً على صحن الدار وساحته، يقال: هذه صرحة الدار أي: ساحتها وعرصتها. وكان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قد بنى هذا الصرح، وجعل بلاطه من زجاج نقي صاف كالبلور، بحيث يرى الناظر ما يجري تحته من ماء .﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ أي: قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه، قال لها: ادخلي هذا القصر، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة، ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ظنته ماء غزيراً كالبحر. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لئلا تبتل بالماء أذيال ثيابها. وهنا قال سليمان مُزيلاً لما اعتراها من دهشة ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما حسبته لجة ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: قصر مملس من زجاج لا يحجب ما

(١) النمل: ٤٤.

وراءه. ثم حكى سبحانه ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانباً من جميل صنع الله فقال: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بسبب عبادتي لغيرك قبل هذا الوقت ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ طائعة مختارة، وإسلامي إنما هو ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس لأحد سواه[1].

٣ ـ عدم التصرف في المال إلا بإذن.

ومن آثار اختياره للعبودية على الملك أنه ﷺ ما كان يتصرف في المال إلا بإذن من الله، كالعبد لا يتصرف في مال سيده إلا باذنه. فروى البخاري عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أُعْطِيكُمْ وَلاَ أَمْنَعُكُمْ، إِنَّما أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**»[2]. وأما نبي الله سليمان عليه السلام، فقد أعطاه الله تعالى أن يتصرف في المال بما يحبّه ويختاره من غير حرج عليه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ٣٢١٧) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٩٤٩.

عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾[1].

قال شيخي أبو بكر الجزائري رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ أي: «أعطيناه ما طلب منا، وقلنا له: هذا إعطاؤنا لك، فامنُن أي: أَعطِ ما شئت لمن شئت، وامنع ما شئت لمن شئت بغير حساب منّا عليك»[2].

❖ الفائدة العاشرة: أنزلوا الناس منازلهم:

في قصة هرقل ومخاطبة النبي ﷺ إياه بعظيم الروم، تأكيد عملي لحديث: «**أنزلوا الناس منازلهم**»[3]. أي: اجعلوا لكل شخص ما يناسبه ويناسب مكانته الاجتماعية من الاحترام والتقدير. وهذا الحديث محله في الآداب والسلوك وليس في القضاء. أي: إذا تخاصم عندك غني وفقير فلا يجوز بحال أن تراعي الغني على حساب الفقير، فهذا ظلم منهي عنه، بل فيه هلاك الأمم، كما بيّن النبي ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها قال: «. . . **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ**

---

(١) ص: ٣٤ ـ ٤٠.
(٢) أيسر التفاسير للجزائري (ج ٣/ص ٤٠٢).
(٣) سيأتي تخريجه.

أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1]. ففي القضاء لا يجوز التفريق أبداً بين الشريف والضعيف أو بين الغني والفقير في الأحكام. وأما في السلوك والمعاملة فيجوز التفريق بينهما بما لا يجرح أحداً منهما. روى أبو داود أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ مَرَّ بِهَا سَائِلٌ فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ فَأَقْعَدَتْهُ فَأَكَلَ. فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»**[2]. وروى الحاكم عن جابر بن عبد الله ﵄ قال: دخل جرير بن عبد الله ﵁ على رسول الله ﷺ وعنده أصحابه، وضنّ كل رجل بمجلسه، فأخذ رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه، فتلقاه بنحره ووجهه فقبّله ووضعه على عينيه، وقال: أكرمك الله كما أكرمتني، ثم وضعه على ظهر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا أتاه كريم قوم فليكرمه»**[3].

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٤٧٥، ومسلم برقم ٤٥٠٥.

(٢) أخرجه أبو داود برقم ٤٨٤٤، وضعّفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم ٤٢٠٢، وذكره مسلم في أول صحيحه تعليقاً، كما ذكره الحاكم في علوم الحديث وصحّحه.

(٣) رواه الحاكم برقم ٧٧٩١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وسكت عنه الذهبي، وصحّح الألباني قوله ﷺ: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**» في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٠٥.

ويُستدل أيضاً لهذا الموضوع من السنّة، بما رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ عام الفتح جاءه العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب فأسلم بمرّ الظهران، فقال له العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئاً. قال: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن**»[1].

واليوم إذا نظرنا إلى واقعنا المعاصر، نجد كثيراً من الشباب إذا رأوك تخاطب أحد الزعماء الكفار ببعض الاحترام بادروا بالإنكار عليك وواجهوك بقولهم: هذا طاغوت فكيف تحترمه! ونسي هؤلاء لقلة علمهم أن الله تعالى حين أرسل نبييه الكريمَيْن موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، وهو طاغوت عظيم، قال لهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾[2]، فأمرهما بمخاطبة فرعون باللّين لأنه أدعى إلى الاستجابة، وأقرب إلى نيل المطلوب، وهو هداية الناس. وكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يحرص على هداية الناس حتى وهو في الجهاد. قال شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ: كَانَ

---

(١) أخرجه أبو داود، وحسّنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٣٠٢١.

(٢) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ أَوْ سَرَايَاهُ قَالَ لَهُمْ: **«تَأَلَّفُوا النَّاسَ، وَلاَ تُغِيرُوا عَلَى حَيٍّ حَتَّى تَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلام. فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ وَبَرٍ وَلاَ مَدَرٍ تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِينَ إِلاَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَتَقْتُلُونَ رِجَالَهُمْ»**[1]، فبهذه الرحمة ساد الإسلام وانتشر بين الناس. وأما اليوم فنجد للأسف التقصير الكبير في دعوة الكفار للإسلام، فضلاً عن الحرص على هدايتهم. فكثير من المسلمين اليوم: إما متملّق للكفار يُسايرهم في كل شيء، ولا يدعوهم إلى الإسلام حتى لا يقولوا عنه بأنه متطرّف. أو متشدّد لا يرى حتى جواز الجلوس معهم، فضلاً عن التلطف في دعوتهم إلى الإسلام، والله المستعان.

❖ الفائدة الحادية عشرة: التدرّج في الدعوة إلى الله:

ذكرنا أن دعوة الكفار للإسلام تبدأ بدعوتهم إلى الشهادتين أولاً، وبيان معناهما، قبل التعرّض لشيء من الأحكام الشرعية.

---

(١) أخرجه الهيثمي في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث برقم ٦٣٧، كما أخرجه ابن عساكر من طريق ابن منده من حديث عبدالرحمٰن بن عائذ، كما في جامع الأحاديث برقم ١٠٥٦١.

ولكن ما الحكمة في ذلك؟ الحكمة في ذلك: أن الدعوة إلى التوحيد فيها تعريف العبد بربه سبحانه وتعالى.

١ ـ فبالتوحيد يعرف العبد أن الله تعالى هو وحده الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه، فيتوجّه القلب إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة من سواه ممن لم يخلق ولم يرزق ولم يُنعم. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾[3].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبّه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقلّ بالخلق والرزق فكذلك فَليُفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا

---

(١) الفرقان: ٣.
(٢) الروم: ٤٠.
(٣) فاطر: ٣.

قال: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان!»[1].

٢ ـ وبالتوحيد يعرف العبد أن الله تعالى وحده هو الذي يدبّر أمر هذا الإنسان وأمر هذا الكون، فينصرف القلب إلى التعلّق بالله وحده. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

٣ ـ وبالتوحيد يعرف العبد أن الضرّ والنفع بيد الله وحده، فيُقبل قلب العبد على التوكل على الله وحده، والاستعانة بالله وحده. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

---

(١) تفسير ابن كثير (ج ٦/ص ٥٣٣).
(٢) يونس: ٣١ ـ ٣٣.
(٣) يونس: ١٠٧.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

فإذا عرف العبد ربه، أحبّه وتعلق به وأيقن بأن الله تعالى وَسِع كل شيء رحمة وعلماً، فحينها لن يعترض العبد على أحكام الله ﷻ، بل يُسرع إلى الاستجابة لها، لأنه أيقن أنّها إنّما شرعت لمصلحة الإنسان كل الإنسان. أما إذا لم يعرف الإنسان ربه فلن يستجيب لأحكامه، لأنه يراها تقييداً لحريته، ويغيب عنه أنها إنما شرعت لمصلحته ومصلحة جميع الناس. روى البخاري عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ﵂ قالت: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِن القرآن سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ. وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَداً، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَداً»[2]. فقد أشارت

(١) الزمر: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم٤٩٩٣.

عائشة ﵂ إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أوّل ما نزل من القرآن الكريم السُّوَر التي تعرّف الإنسان بخالقه، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وجميل مِنَحه وعطاياه، ثم تَصِف له ما أعدّ الله تعالى للطائعين من عباده من نعيم وجنان، كما تَصِف له ما أعدّ الله للعصاة من عباده من عذاب وجحيم. فإذا اطمأنّت النفوس إلى معرفة الله تعالى، واستشعرت حكمة الله وعدله ورحمته بخلقه وإحاطة علمه بهم، رَسَخ فيها حينها تعظيم الله ﷻ وتعظيم أمره، وغُرس فيها حبّ الله ورجاؤه والخوف منه، فعندها تنقاد النفوس إلى أحكام الله تعالى بيُسر وسهولة. وأما لو نزلت الأحكام والتكاليف، من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد، أوّل الأمر وقبل أن يرسخ الإيمان في النفوس، لما استجاب الناس للأحكام ولما تركوا ما ألفوه وتعوّدوا عليه.

فمن هنا ينتبه الداعية إلى الله تعالى إلى خطواته في الدعوة، وأن أولى خطواته تبدأ بدعوة الكفار إلى معرفة الله ﷻ وتوحيده وتعظيمه، فإذا رأى منهم الاستجابة والتأثر بدأ بتعليمهم الأحكام شيئاً فشيئاً. وأما أن يعلّمهم التوحيد ثم يبيّن لهم كامل الواجبات والمحرّمات في ساعة واحدة، فهذا مدعاة إلى التنفير من الدين.

وهناك قصة ذكرها لنا بعض المشايخ: أن مجموعة من العمال الفليبينيين كانوا قد مالوا إلى الإسلام حتى زاروا مركزاً للدعوة والتعريف بالإسلام. وبدأ بعض الدعاة بتعريفهم بالإسلام، فبدأ بالتوحيد، ثم انتقل إلى أركان الإسلام، ففرائضه وواجباته ومستحباته، ثم محرماته ومكروهاته، وكل هذا في ساعة واحدة، حتى وصل إلى موضوع الختان، فنفر العمّال وتركوا المركز لا يَلوون على شيء. فليس هذا من هَدي النبي ﷺ في شيء: أن تلقي عليهم كل التكاليف في ساعة واحدة، بل الواجب التأنّي بهم حتى يرسخ هذا الدين في نفوسهم شيئا فشيئاً.

❖ الفائدة الثانية عشرة: أسباب مضاعفة الأجر

تضعيف الأجر في الإسلام يرجع إلى أسباب عديدة منها:

١ ـ شدة مجاهدة النفس:

ويدخل في هذا المعنى مؤمن أهل الكتاب، فقد تضاعف أجره لكونه جاهد نفسه مرتين: مرّة باتباعه للرسول الأول وخروجه عمّا اعتاده وألفه من دين قومه. ومرة أخرى باتباعه للرسول الثاني، وخروجه ثانية عمّا اعتاده وألفه من دين قومه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾[1]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾: «أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني يؤتون أجرهم مرّتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثاني؛ ولهذا قال: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على اتّباع الحق؛ فإنَّ تجشُّم مثل هذا شديد على النفوس»[2].

ـ ويدخل في هذا المعنى أيضاً: العبد المملوك إذا قام بحق الله وحق سيّده، فله الأجر مرتان. أما أجره الأول، فلمجاهدته نفسه في القيام بطاعة الله تعالى. وأما أجره الثاني، فلمجاهدته نفسه في القيام بخدمة سيّده، فلما جمع بين عبادته لربه وبين خدمته لسيده، من دون أن يشغله أحد الحقّين عن الآخر، كتب الله له الأجر مرتين.

٢ ـ كثرة الإحسان:

ويدخل في هذا المعنى: الرجل الذي عنده جارية

---

(١) القصص: ٥٢ ـ ٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير (ج ٦/ص ٢٤٤).

فأدّبها فأحسن تأديبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوّجها فله الأجر مرتان. أما أجره الأول، فلإحسانه إلى جاريته، حيث حصّنها بالعلم والأدب ثم منحها حرّيتها بعد أن كانت رقيقة مملوكة. وأما أجره الثاني، فلإحسانه إليها مرة ثانية حين لم يتركها بلا مُعيل ولا مأوى بعد أن نالت حريتها بل آواها وأكرمها بالزواج بها. واعتبر الزواج بها إحساناً إليها، لأن النّاس كانت تَعيب مثل هذا الزيجات وتنتقدها.

روى البغوي عن علي بن صالح، عن أبيه قال: «كنت عند الشعبي، فجاءه رجل من أهل خراسان، قال: إن الرجل عندنا إذا أعتق سرّيته، ثم تزوجها يُدعى كالراكب بدنته (أي: ناقته). قال: فقال الشعبي: حدثني أبو بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي (ﷺ) قال: «**أيّما رجل كانت له جارية، فأدّبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران. وأيّما مملوك أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران. وأيّما رجل آمن بنبيه، ثم آمن بمحمد ﷺ فله أجران**». قال الشعبي: أعطيتكها بغير شيء، إن كان يُركب فيما هو أدنى منه إلى المدينة»[1].

(١) شرح السنة (ج ١/ص ٥٤).

٣ ـ الدلالة على الخير:

ويدخل في هذا المعنى: الشخص ـ سواء كان رجلاً أو امرأة ـ الذي يدعو الناس إلى الهداية ويُستجاب له.

فقد روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً. وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً**»[1].

ـ كما يدخل في هذا المعنى مقام القُدوة. وأعني به الشخص الذي بلغ في الخير منزلة عظيمة حتى صار قُدوة لغيره، فإن زلّ زلّ بسببه خلق كثير، وإن ثبت ثبت بثباته خَلْق كثير، فهذا يُضاعف له أجره إن ثبت، كما يُضاعف عليه وِزره إن زلّ.

قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾[2]. قال سيد

---

(١) رواه مسلم برقم ٦٩٨٠.

(٢) الأحزاب: ٣٠ ـ ٣١.

طنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى يا نساء النبي ﷺ من يأت منكن بمعصية ظاهرة القُبح، يُضاعف الله تعالى لها العقاب ضِعفين، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشدّ قبحاً وأعظم جرماً. قال صاحب الكشاف: وإنما ضُوعف عذابُهن، لأنّ ما قبح من سائر النساء، كان أقبح منهن وأقبح، لأن زيادة قبح المعصية، تتبع زيادة الفضل والمرتبة... وليس لأحد من النساء، مثل فضل نساء النبي ﷺ، ولا على أحد منهنّ مثل ما لله عليهن من النّعمة... ولذلك كان ذمّ العقلاء للعاصي العالم أشدّ منه للعاصي الجاهل، لأن المعصية من العالِم أقبح. وقد رُوي عن زين العابدين بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أنه قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم. فغضب، وقال: نحن أحرى أن يُجرى فينا، ما أجرى الله تعالى على نساء نبيّه ﷺ من أنّ لمسيئنا ضعفين من العذاب، ولمحسننا ضعفين من الأجر. وقوله سبحانه: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ...﴾ جملة شرطية، والجملة الشرطية لا تقتضي وقوع الشرط، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ... ﴿٦٥﴾﴾ وكما في قوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان أن منزلتهنّ رضي الله عنهن لا تمنع من وقوع العذاب بهنّ في حالة ارتكابهنّ لما نهى الله تعالى عنه، فقال: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى

ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: وكان ذلك التضعيف للعذاب لهنّ، يسيراً وهيّناً على الله، لأنه سبحانه لا يصعب عليه شيء. هذا هو الجزاء في حالة ارتكابهن ـ على سبيل الفَرْض ـ لما نهى الله تعالى عنه. أما في حالة طاعتهن، فقد بيّن سبحانه جزاءهن بقوله ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ والقنوت: ملازمة الطاعة لله تعالى، والخضوع والخشوع لذاته. أي: ومن يقنت منكن يا نساء النبي لله تعالى، ويلازم طاعته، ويحرص على مرضاة رسوله ﷺ، وتعمل عملاً صالحاً، من يفعل ذلك منكن، نؤتها أجرها الذي تستحقه مضاعفاً، فضلاً منّا وكرماً، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ أي: وهيّأنا زيادة على ذلك ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ لا يعلم مقداره إلا الله تعالى»[1].

٤ ـ شدة الصبر والتحمل:

ويدخل في هذا الباب: الشخص الذي يُبتلى بمرض شديد فيموت منه، أو يبتلى بميتة قاسية فيصبر ويحتسب.

ودليله ما رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟**» قَالُوا: يَا

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ٣٤١٦).

رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. قَالَ: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذاً لَقَلِيلٌ**». قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ**». قَالَ ابْنُ مِقْسَم: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ**»(١).

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(٢).

فالشهادة منزلة عالية في الجنة، وصاحبها أعلى أجراً من المؤمن الذي ليس بشهيد. ومع هذا فقد مُنحت هذه الدرجة الرفيعة لكل من ابتُلي بميتة صعبة فصبر عليها واحتسب، كالمبطون الذي يموت بسبب داء في بطنه، أو صاحب الهدم وهو من ينهدم عليه البناء فيموت منه.

ـ كما يدخل في هذا الباب أيضاً: الذي يُبتلى بمرض شديد فيُضاعف أجره سواء مات منه أو لم يمُت.

روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلْتُ

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٥٠٥٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٨٢٩.

عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَعْكاً شَدِيداً. قَالَ: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ**». قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»[1].

والوعك هو الحمّى، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحاصل أنه أثبت أن المرض إذا اشتدّ ضاعف الأجر، ثم زاد عليه بعد ذلك أن المضاعفة تنتهي إلى أن تحطّ السيئات كلها، أو المعنى قال: نعم شدّة المرض ترفع الدرجات وتحط الخطيئات أيضاً حتى لا يبقى منها شيء، ويشير إلى ذلك حديث سعد الذي ذكرته قبل «**حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»، ومثله حديث أبي هريرة عند أحمد وابن أبي شيبة بلفظ: «**لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة**»[2].

ـ ويدخل في هذا الباب أيضاً: كل من قام بعمل في سبيل الله وتحمّل فيه مشقة زائدة، فيُزاد في أجره

---

(١) أخرجه البخاري برقم٥٦٤٨، ومسلم برقم ٦٧٢٤.

(٢) فتح الباري (ج ١٠/ص ١١٢).

على قدر زيادة مشقّته. روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: بَلَغَنَا مَخْرَجُ النَّبِي ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمْ، أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ، وَالآخَرُ أَبُو رُهْم ـ إِمَّا قَالَ بِضْعٌ وَإِمَّا قَالَ ـ فِي ثَلَاثَةٍ وَخَمْسِينَ أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي، فَرَكِبْنَا سَفِينَةً، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِي بِالْحَبَشَةِ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعاً. فَوَافَقْنَا النَّبِيَ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، وَكَانَ أُنَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا ـ يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ ـ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ. وَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَهْيِ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا، عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِي ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِي فِيمَنْ هَاجَرَ. فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ. قَالَ عُمَرُ: آلْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ. قَالَ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ. فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارِ أَوْ فِي أَرْضِ الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ بِالْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ ﷺ، وَايْمُ اللَّهِ، لَا أَطْعَمُ طَعَاماً، وَلَا أَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِلنَّبِي ﷺ وَأَسْأَلُهُ، وَاللَّهِ لَا

أَكْذِبُ وَلَا أَزِيغُ وَلَا أَزِيدُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا جَاءَ النَّبِي ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِي اللَّهِ إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «**فَمَا قُلْتِ لَهُ؟**» قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ. قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً، يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلاَ أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبِي ﷺ**»[1]. فأصحاب السفينة ضوعف أجرُهم بالهجرة، لأنهم تكبّدوا مشقة أكبر من غيرهم.

ـ ويدخل في هذا الباب أيضاً كل من صبر وتحمّل من أجل الثبات على دينه ما لم يتحمّل غيره فيُضاعف له أجره.

روى ابن نصر في «السنة» عن عتبة بن غزوان أخي بني مازن بن صعصعة، وكان من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم**».

قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال: «**بل منكم**»[2]. فجعل النبي ﷺ للمتمسك في دينه في أيام الصبر، وهي

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٢٣٠ و٤٢٣١، ومسلم برقم ٦٥٦٧.
(٢) صحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٩٤.

أيام شدة الفتن وكثرة الأهوال، أجر خمسين من الصحابة الكرام.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «حديث: «**للعامل منهم أجر خمسين منكم**» لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة، لأن مجرّد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة. وأيضاً فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد»[1].

❖ الفائدة الثالثة عشرة: حكم الرضى بالمنكر

ذكرنا في أثناء الشرح: أن من رضي بجريمة قومه، فقد شاركهم في الإثم. ودليله ما رواه مسلم عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «**لاَ مَا صَلَّوْا**»[2]. فقوله في الحديث: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ**»، أي من كره

(١) فتح الباري (ج ٧/ص ٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم ٤٩٠٧.

بقلبه فقد برئ من الإثم، وكذا من أنكر بلسانه، وقد ورد توضيحها في رواية عند أبي داود: «**سَتَكُونُ عَلَيْكُمْ أَئِمَّةٌ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ**» قَالَ أَبُو دَاوُدَ قَالَ هِشَامٌ: «**بِلِسَانِهِ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»[1]. قال النووي: «معناه من كره ذلك المنكَر فقد برئ من إثمه وعقوبته، وهذا في حق من لا يستطيع إنكاره بيده ولا لسانه فليكرهه بقلبه وليبرأ. وقوله ﷺ: «**ولكن من رضي وتابع**» معناه: ولكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع، وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يكرهه بقلبه أو بالمتابعة عليه»[2].

فالواجب على المسلم إنكار المنكر بيده أولاً، إذا استطاع. والاستطاعة تعني الاستطاعة الشرعيّة، وهي النظر في المصالح والمفاسد ومآلات الأمور المترتّبة على عمله، فإن أدّى إنكاره للمنكر باليد إلى منكر أعظم منه، فهو غير مستطيع شرعاً وإن كان مستطيعاً بالفعل. فإن لم يستطع الإنكار باليد، انتقل عندها إلى الإنكار

---

(١) صحّحها الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٤٧٦٠.

(٢) شرح النووي على مسلم (ج ١٢/ص ٢٤٣).

باللسان، وهو مقيد أيضاً بالاستطاعة الشرعيّة التي بيّنّاها آنفاً. وإلا فينتقل إلى المرحلة الأخيرة، وهي الإنكار بالقلب، وهذه غير مقيّدة بالاستطاعة، لأنها مقدور عليها لكل أحد. والإنكار بالقلب يعني كره المنكر والتضايق منه، وهذا إذا بلغه المنكر وهو بعيد عنه، أما إذا كان حاضراً في مجلس المنكر فيلزمه اجتناب المجلس والبعد عنه وإلا اعتبر راضياً به. قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾[1]. قال سيد طنطاوي: «أي: وقد نزّل الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ في كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم آيات الله يكفر بها الكافرون، ويستهزئ بهم المستهزئون، فعليكم في هذه الأحوال أن تتركوا مجالسهم، وأن تُعرضوا عنهم حتى يتكلموا في حديث آخر سوى الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

ثم قال: وقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ تعليل للنهي عن القعود معهم، أي: أيها المؤمنون ـ إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله تعالى

(١) النساء: ١٤٠.

والاستهزاء بها، كنتم معهم في الاستهانة بآيات الله وشركاء لهم في آثامهم، لأن الراضي بالكفر بآيات الله وبالاستهزاء بها يكون بعيداً عن حقيقة الإيمان، ومستحقاً للعقوبة من الله تعالى. ثم قال: قال القرطبي: فدلّ بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يتجنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية»[1].

وروى البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقفنّ عند رجل يُقتل مظلوماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه. ولا تقفنّ عند رجل يُضرب مظلوماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه**»[2].

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (ج ١/ص ١١٠٦).

(٢) قال العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (ج ٣/ص ٣٠٩): أخرجه الطبراني بسند ضعيف، والبيهقي في شُعب الإيمان بسند حسن.

❖ الفائدة الرابعة عشرة: تحرير الإنسان:

الآية الكريمة التي وردت في كتاب النبي ﷺ لهرقل، فيها تعريض باليهود والنصارى، حيث إنهم لم يُفردوا الله تعالى بالعبادة، بل عبدوا معه سواه. فعبد اليهودُ عزيراً، وعبد النصارى المسيحَ وأمَّه عليهما السلام والروح القدس. بل أكثر من هذا، فقد اتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله. وقد جاء التصريح بهذا الأمر في آية أخرى، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾[1]. وهنا سؤال: كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله؟ والجواب بيّنه حديث عديّ بن حاتم الطائي، حين جاء إلى النبي ﷺ، وكان قد دان بالنصرانية قبل الإسلام، فلما سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ قال: يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم! فقال: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا**

---

(١) التوبة: ٣١.

لهم الحرام فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»[1].

فالإسلام اعتبر أنه لا يجوز لأحد مهما بلغ في العلم أو العبادة أن يصادر حرّية الناس في الاختيار، فيحرّم عليهم ما يشاء، أو يحلّل لهم ما يراه هو حسب مصلحته وهواه. بل التحليل والتحريم بيد الله وحده، يحكم فيه بما فيه مصلحة العباد، لا يحابي جنساً على آخر، أو لوناً دون آخر، لأن العباد كلهم خلق الله، فهم سواسية أمام الله. قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾[2].

«العالم المتحضّر اليوم يزعم بأنّه خلّص البشرية من أغلال الاستعباد ومنحهم حرية مطلقة، إلا أن الواقع العملي يكذّب كل ما زعموا. فالعالم المتحضّر أراد تحرير الإنسان من العبودية لله، ليصيّره عبداً لمطامع الإنسان الغربي وأخلاقه وثقافته. العالم الغربي ينادي بحق الشعوب في تقرير مصيرها، إلا أنه يجعل هذا الحق لشعب دون شعب، وجنس دون جنس، ودين دون

---

(١) أخرجه الترمذي، وحسّنه الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام برقم ٦.

(٢) المؤمنون: ٧١.

دين. والعالم الغربي ينادي بالحرية، ولكنها ليست لكل الشعوب، بل هي لمن يضمن مصالح الغرب ورفاهيته. أما الإسلام فقد جاء لتحرير الإنسان كل الإنسان بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه.

لما تقابل المسلمون والفرس في معركة القادسية، وطلب قائد الفرس رستم من قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص ﷺ أن يبعث إليه برجل عاقل ليسأله، فبعث إليه بربعي بن عامر ﷺ. سأل رستم ربعي بن عامر قائلاً: ما جاء بكم إلى بلادنا؟ فأجابه قائلاً: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

أخرج ابن عبدالحكم عن أنس ﷺ قال: «أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم. قال: عُذت معاذاً قال: سابقتُ ابن عمرو بن العاص فسبقتُه، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم بابنه معه، فقدم. فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه

(١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ج ١/ص ١٩٣).

بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو. قال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيتُ منه. فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدّتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً! قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتِني».

❖ الفائدة الخامسة عشرة: الأعداء من بني جلدتنا:

كره أبو سفيان أن يُعظّم أمر رسول الله ﷺ، كما كره أن يَصل ذكره إلى الروم، وأن يصبح دينُه حديث مجالسهم ومنتدياتهم. وقد يستغرب المرء سبب هذا البغض للإسلام، فماذا يضير أبا سفيان لو انتشر الإسلام في بلاد الروم وصار له ذكر وقوّة، ففي عزّ الإسلام عزّ للعرب، خاصّة أن الروم كانوا يحتقرون العرب ويزدرونهم إلى جانب احتلالهم لأجزاء من بلادهم.

وكان النبي ﷺ يعرض على قومه لمّا رفضوا الإسلام: أن يقفوا على الحِياد وألّا يكونوا رأس الحربة في مواجهة هذا الدين، بل فليتركوا هذا الدين يواجه الناس وحيداً، فإن أبى الناس دعوته وحاربوها وقضوا عليها، فقد نالوا ما كانوا يتمنّونه من غير جهد أو تعب. وإن انتصر الإسلام وانتصرت دعوته، فهم بالخيار: إما أن يدخلوا في هذا الدين وهم متوافرون لم ينقص منهم

أحد، أو يواجهوا هذا الدين بكامل عددهم وعُدّتهم. إلا أن الحقد على الإسلام والحسد للنبي ﷺ ولمن معه منعهم من العقلانية في التعامل معه.

ذكر أصحاب السِيَر: «أن رسول الله ﷺ خرج عام الحديبية في السنة السادسة من الهجرة بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، يريد زيارة البيت ولا يريد قتالاً. وساق معه الهَدي وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظّماً له. فخرج حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل[1]، قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى، يُعاهِدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على**

(١) العوذ المطافيل: النوق ذوات اللبن معها أولادها، وهي كناية عن النساء معها الأطفال.

هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[1]»[2].

فقريش نصّبت نفسها، شعرت أم لم تشعر، أداة بيد المشروع الاستعماري لبلاد العرب، المتمثّل يومها بدولتي فارس والروم وعملائهم من العرب.

واليوم يُعيد التاريخ نفسه، فها هي القِوى العالمية الكبرى ومعها إيران تتولى حرب الإسلام للقضاء عليه. فترى كثيراً من العرب السنّة، كالعلمانيين وغيرهم، يقفون مع هؤلاء ضد المسلمين من بني جلدتهم. فيُقال لهؤلاء اليوم، كما قال النبي ﷺ لقريش بالأمس: لماذا لا تقفون على الحِياد وتنتظرون نتيجة المعركة، فإن أصيب المسلمون كان ذلك ما أردتم. وإن انتصر الإسلام ففي عزّه عزّكم لأنكم عرب وسنّة. ولكن للأسف لم يتغيّر موقفهم عن موقف قريش، وظلوا أداة بيد المشروع الاستعماري لبلاد المسلمين. والسبب هو نفسه السبب الذي حمل قريشاً على هذا الموقف، وهو: الغيظ والحقد على الإسلام ونبي الإسلام.

يتعجب الإنسان من حقد قريش ومن بعدهم من

---

(١) السالفة: صفحة العنق، وأراد بذلك الموت.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (ج ٣/ص ٣١٣).

العرب على الإسلام، مع أن النبي ﷺ ما جاءهم إلا بعزّ الدنيا والآخرة لو أنهم أطاعوا أمره.

«لما اجتمع الملأ من قريش وقرروا قتل النبي ﷺ، وانطلقوا في عَتمة الليل حتى وقفوا على باب بيته، يرصدونه حتى إذا نام وثبوا عليه. في هذه الأثناء قام أبو جهل فيهم كالمستهزئ بالنبي ﷺ فقال: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جِنان كجنان الأردن. وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها. قال: فخرج رسول الله ﷺ، فأخذ حَفْنة من تراب في يده، ثم قال: «**نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم**». وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرَونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾. ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً. ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب»[1]. والشاهد من هذه الرواية أن

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ج ٢/ص ٢٣٠).

النبي ﷺ صدّق أبا جهل حين قال ما قال، بأنهم لو تابعوا النبي ﷺ على أمره لفازوا بملك الدنيا ونعيم الآخرة، ولكنهم أبوا إلا المعاندة والمكابرة، فنجّى الله تعالى رسوله منهم، وقتل أشرافهم في بدر، وفيهم أبو جهل، وخاطبهم النبي ﷺ قائلاً: «**بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيّ كُنْتُمْ لِنَبِيّكُمْ، كَذّبْتُمُونِي وَصَدّقَنِي النّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النّاسُ، وَقَاتَلْتُمُونِي ونَصَرَنِي النّاسُ**»[1].

❖ الفائدة السادسة عشرة: أهمية السمع والطاعة:

هرقل كان إمبراطور الروم، وفي الواقع العملي كان هرقل قائدهم السياسي والعسكري والديني معاً. ومع هذا لما اقتنع بالإسلام وعرضه على وجهاء الروم أَبَوْا عليه، فاضطُر إلى مسايرتهم والنزول على أهوائهم، فكانت العاقبة أن خسروا الدنيا والآخرة. أما خسارة الدنيا، فلِأنّ مُلكهم زال عن بلاد الشام إلى الأبد، فما هي إلا سنوات معدودة بعد اجتماعهم في الدسكرة حتى أخذ المسلمون ما بأيديهم من بلاد الشام بلداً بلداً. وأما في الآخرة، فيقول النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌ وَلاَ نَصْرَانِي ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ**

(١) الروض الأنف (ج ٣/ص ٩٠).

النَّارِ»[1]. وظهر لنا من خلال هذه الواقعة أن طاعة الروم لقادتهم لم تكن مطلقة، كما كان يتبادر إلى أذهاننا، عندما نطالع سِيَر عظماء الروم وصلابتهم وبأسهم، بل كان يتخلّلها كثير من العصيان والاضطراب.

إلا أن حال العرب قبل الإسلام لم تكن بأحسن من حال الروم، بل كانوا أكثر أمم الأرض تفرّقاً وتشرذماً.

وذكر ابن خلدون السبب في ذلك فقال: «العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة. والسبب في ذلك: أنهم لِخُلُق التوحّش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغِلظة والأَنَفة وبُعد الهمّة والمنافسة في الرّياسة، فقلّما تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدّين بالنبوّة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خُلُق الكِبْر والمنافسة منهم، فسَهُل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغِلظة والأَنَفة، الوازع عن التحاسد والتنافس. فإذا كان فيهم النبيّ أو الوليّ الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم

---

(١) رواه مسلم برقم ٤٠٣ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

لإظهار الحق، تمّ اجتماعهم وحصل لهم التغلّب والملك. وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهُدى، لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خُلُق التوحش القريب المعاناة المتهيِّئ لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، وبُعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات، «**فإن كل مولود يولد على الفطرة**»، كما ورد في الحديث»[1]. وما ذكره ابن خلدون من صعوبة اجتماع العرب إلا على أمر ديني صحيح، وقد أشار إليه القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وقد أخبر النبي ﷺ أنّ أمّته سوف يدبّ فيها التفرّق والتشرذم من بعده، وهذا بسبب أن الوازع الديني الذي كان يدفعهم إلى التوَحُّد ويحجُزُهم عن التفرّق يضعف في نفوسهم، فيرجعون إلى ما كانوا عليه من طباع التوحّش التي ذكرها ابن خلدون.

لذلك كانت وصيّة النبي ﷺ لأمّته عندما ذكر ما

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ج ١/ص ٧٥).
(٢) الأنفال: ٦٢.

سيؤول إليه حالهم من بعده من التفرّق هي: الحرص على الاجتماع على قائد واحد. فروى أبو داود عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن عَمْرٍو السُّلَمِيّ وَحُجْر بْن حُجْرٍ قَالَا: أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فَسَلَّمْنَا وَقُلْنَا أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ. فَقَالَ الْعِرْبَاضُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيّاً، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**[1] **وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[2].

وكان النبي ﷺ إذا بعث الأمراء يأمرهم بالتطاوع فيما بينهم،لأنه يعلم أن الأمة إنما تُؤتى بسبب الاختلاف وحبّ الإمارة. فروى البخاري ومسلم: أَنَّ

(١) النواجذ: أواخر الأضراس واحده ناجذ.

(٢) أخرجه أبو داود، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٤٦٠٧.

النَّبِي ﷺ لمّا بَعَثَ مُعَاذاً وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ لهما: «**يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا**»[1].

وكلما زاد دين المرء زاد حرصه على اجتماع الكلمة، ولو أدّاه ذلك إلى أن يضحّي بحقّه في الإمارة. ذكر ابن كثير «أن موسى بن عقبة وعروة بن الزبير قالا: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلى وعبدالله ومن يليهم من قضاعة. قال عروة بن الزبير: وبنو بلى أخوال العاص بن وائل، فلما صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدّه[2]. فندب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين، فانتدب أبو بكر وعمر في جماعة من سراة المهاجرين ﷺ أجمعين، وأمّر عليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة ابن الجراح.

قال موسى بن عقبة: فلما قدموا على عمرو، قال: أنا أميركم، وأنا أرسلتُ إلى رسول الله ﷺ أستمِدّه بكم.

فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك وأبو

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٠٣٨، ومسلم برقم ٤٦٢٣.

(٢) يستمدّه: أي يطلب منه أن يمده بالرجال.

عبيدة أمير المهاجرين. فقال عمرو: إنما أنتم مدد أُمددتُه.

فلما رأى ذلك أبو عبيدة، وكان رجلاً حسن الخُلُق لين الشّيمة، قال: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال: «**إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا**» وإنك إن عصيتني لأطيعنّك. فسلّم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص»[1].

❖ الفائدة السابعة عشرة: حراسة التوحيد:

رأينا كيف سجد عظماء الروم لهرقل حين أرادوا التعبير عن رضاهم عنه. وهذا السجود منهي عنه في شريعتنا، ولو كان على سبيل التحيّة والتقدير، كما سجد إخوة يوسف ليوسف عليه السلام.

فقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ، قال: «**ما هذا يا معاذ؟**» قال: أتيت الشام، فوافقتهم[2] يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: «**فلا تفعلوا، فإني لو كنت**

(١) السيرة النبوية لابن كثير (ج ٣/ص ٥١٦).
(٢) أي صادفتهم ووجدتهم.

آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» الحديث[1]. فنهيُ النبي ﷺ أمّته عن السجود لغير الله، داخلٌ في باب الاحتياط لجَناب التوحيد. فإن السجود مَظهر من مظاهر التعظيم والإجلال لمن يُسجد له، فقَصَرَتْهُ الشريعة الإسلامية على السجود لله وحده، دون سواه، ولو كان على سبيل التحيّة والاحترام، سداً لذريعة الشرك بالله.

وهكذا نجد أن الشريعة الإسلامية أوصدت كل الأبواب التي أفضت بالناس قديماً إلى الشرك بالله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَد اسْتَفَاضَتْ الْأَحَادِيثُ عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَن اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، وَلَعَنَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَنَهَى عَن اتِّخَاذِ قَبْرِهِ عِيداً، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَوَّلَ مَا حَدَثَ الشِّرْكُ فِي بَنِي آدَمَ كَانَ فِي قَوْمِ نُوحٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ نُوحاً أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ١٨٥٣، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ١٥٠٣.

يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[1]، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْماً صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ عَبَدُوهُمْ. وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ صَارَتْ إِلَى الْعَرَبِ، وَسَمَّى قَبَائِلَ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ. فَلَمَّا عَلِمَتْ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَسَمَ مَادَّةَ الشِّرْكِ بِالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي يُصَلِّي لِلَّهِ ﷻ، كَمَا نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِئَلَّا يُشَابِهَ الْمُصَلِّينَ لِلشَّمْسِ؛ وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي إِنَّمَا يُصَلِّي لِلَّهِ تَعَالَى وَكَانَ الَّذِي يَقْصِدُ الدُّعَاءَ بِالْمَيِّتِ أَوْ عِنْدَ قَبْرِهِ أَقْرَبَ إِلَى الشِّرْكِ مِنَ الَّذِي لَا يَقْصِدُ إِلَّا الصَّلَاةَ لِلَّهِ ﷻ ـ لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ»[2]. وقال صاحب الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: «وأول ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح حين غلوا في الصالحين ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾، قال البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه أسماء رجال صالحون من قوم نوح، فلما هلكوا؛

---

(١) نوح: ٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى (ج ١/ص ٣٢١).

أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم؛ عُبدت. قال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا؛ عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمَد، فعبدوهم». ومن هذا الأثر الذي رواه البخاري عن ابن عباس في غلوّ قوم نوح في الصالحين، وتصويرهم إياهم والاحتفاظ بصورهم ونصبها على المجالس منه، ندرك خطورة التصوير وخطورة تعليق الصور على الجدران وخطورة نصب التماثيل في الميادين والشوارع، وأن ذلك يؤول بالناس إلى الشرك، بحيث يتطوّر تعظيم تلك الصور والتماثيل المنصوبة، فيؤدي ذلك إلى عبادتها؛ كما حدث في قوم نوح. ولهذا جاء الإسلام بتحريم التصوير ولعن المصوّرين وتوعّدهم بأشدّ الوعيد، وأنهم أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة؛ سداً لذريعة الشرك، وابتعاداً عن مضاهاة خلق الله ﷻ»[1].

إذاً أوّل ما حدث الشرك في الأرض عند قوم

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ج ١/ص ٣٤).

نوح، وذلك لما مات بعض الصالحين فيهم، فقاموا حينها بالعكوف على قبورهم وملازمتها، كما قاموا بصنع تماثيل لهؤلاء الصالحين في الأماكن التي كانوا يرتادونها، حتى يتذكروهم ويتذكروا قوة عبادتهم لله تعالى فينشطوا في أداء العبادة. ولكن بعدما مضى هذا الجيل، وجاء جيل من بعده، وغاب عنه العلم والمعرفة بالسبب الذي نُصبت لأجله هذه التماثيل، أغواهم الشيطان فزيّن لهم عبادتها، وأوْهَمهم أن آباءهم كانوا يعبدونها، ويتقرّبون إلى الله بعبادتها. فمن ذلك التاريخ بدأ الشرك في الأرض، سواء من خلال تعظيم القبور والاستغاثة بأصحابها والاعتقاد بأنهم يملكون شيئاً من الضرّ والنفع، أو من خلال تعظيم التماثيل وما ترمز له، والاستغاثة بها والاعتقاد بأنها تملك شيئاً من الضرّ والنفع. ثم تطوّرت أساليب الشرك وأشكاله مع مرور الزمن، ولكن بقي يجمعها أصل واحد، وهو: صرف بعض أنواع العبادات لغير الله، لظنهم أن هذا الغير له قدرة وتأثير في مُجريات الأقدار.

فلما جاء الإسلام نهى عن كل ما أدّى بالناس إلى الشرك احتياطاً لجَناب التوحيد. ففي القبور، نهى عن تعظيمها، سواء ببنائها أو زخرفتها أو تزيينها أو إضاءتها، حتى لا يعتقد أحد أن لها تأثيراً بأي شيء.

كما نهى أول الأمر حتى عن زيارتها، وبعد أن رسخ العلم في الناس أذن بزيارة القبور، لما لها من أثر في التذكير بالآخرة. روى الحاكم عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتُكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكّر الآخرة، ولا تقولوا هُجْراً**[1]»[2].

وفي التماثيل، نهى عن تصنيعها أو نصبها في الشوارع والساحات، لسببين؛ الأول: لما فيها من مضاهاة الخلق، فكأن صانع التمثال يدّعي أنه يخلق مثل ما خلق الله. والثاني: لما يُخشى من تعظيمها الذي قد يفضي إلى عبادتها. وأما بالنسبة للصور الفوتوغرافية، فهي لا تدخل في النهي من جهة السبب الأول، لأن الصورة الفوتوغرافية ليس فيها مضاهاة للخلق، بل هي إظهار لما خلق الله في ورقة أو نحوها عن طريق حصر الظل. إلا أن الصور الفوتوغرافية تدخل في النهي من جهة السبب الثاني، أي: أنه ولو جاز التصوير الفوتوغرافي للأشخاص، إلا أنه لا يجوز نصب صُوَرهم في الميادين والشوارع والبيوتات، لما يُخشى من

---

(١) لَا تَقُولُوا هُجْراً: أي لَا تَقُولُوا سُوءاً.

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أنس برقم ١٣٩٣، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم ٨٧١٣.

تعظيمها الذي قد يُفضي إلى عبادتها.

وفي الغلوّ بالصالحين، نهى النبي ﷺ عن المبالغة في إطرائهم ومديحهم مما يُخشى من تعظيمهم الذي قد يفضي إلى عبادتهم. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنّما أنا عبدُه، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

ومن هذا الباب كان النهي عن السجود لأحد من الناس، لما يخشى من تعظيمه الذي قد يُفضي إلى عبادته.

الخاتمة

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يبصّرنا بدينه، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع مجيب.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
متن الحديث	٩
شرح الحديث	١٥
الأسئلة التي طرحها هرقل	٢١
المنهج الذي اتبعه هرقل في أسئلته	٤٨
الرأي الذي توصّل إليه هرقل	٥٤
شرح كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل	٦٠
اجتماع هرقل مع قادة الروم	٧٥
مصير هرقل	٧٩
فوائد الحديث	٨٣
الفائدة الأولى: فضل التثبّت في الأمور	٨٣
الفائدة الثانية: مكارم الأخلاق عند العرب	٨٧
الفائدة الثالثة: وعد الله للأمة بالتمكين	٩٣

الموضوع	الصفحة

الفائدة الرابعة: تحريم الغدر ١٠٠
الفائدة الخامسة: بين الابتلاء والتمكين ١٠٣
الحكمة من الابتلاء ١٠٥
الفائدة السادسة: تمكين النبي برهان على صدقه ... ١١٠
الفائدة السابعة: لوحة مشرقة في فتح بيت المقدس . ١١٢
الفائدة الثامنة: شهادات القوم في فضل نبينا ﷺ ... ١١٤
الفائدة التاسعة: اختيار العبودية ١٢٧
الفائدة العاشرة: أنزلوا الناس منازلهم ١٣٣
الفائدة الحادية عشرة: التدرّج في الدعوة إلى الله ... ١٣٦
الفائدة الثانية عشرة: أسباب مضاعفة الأجر ١٤١
الفائدة الثالثة عشرة: حكم الرضى بالمنكر ١٥١
الفائدة الرابعة عشرة: تحرير الإنسان ١٥٥
الفائدة الخامسة عشرة: الأعداء من بني جلدتنا ١٥٨
الفائدة السادسة عشرة: أهمية السمع والطاعة ١٦٢
الفائدة السابعة عشرة: حراسة التوحيد ١٦٧
الخاتمة ١٧٤
فهرس الموضوعات ١٧٥

